البلاغة القرآنية
في آيات الرجاء

دكتور
طه محمد طه المتولى
مدرس البلاغة والنقد بالكلية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البلاغة القرآنية فى آيات الرجاء

الرجاء نبتة طيبة، تنمو وتترعرع فى قلوب المؤمنين الصادقين، ذلك لأن القلوب المؤمنة، هى بمثابة التربة الصالحة والبيئة الملائمة لمشاعر المراقبة والمحاسبة، والرجاء فى الله وتوقع لقائه.

فالذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة والمؤمنون المهاجرون المجاهدون، والملائكة المقربون والأنبياء المرسلون، هم جميعا ممن يرجون الله واليوم الآخر ويرقبون لقاءه يوم الحساب، فيرجون الثواب ويخشون العقاب.

ونبتة الرجاء هذه حين تزهر وتثمر، فإنها تعود بدورها على قلوب المؤمنين بالإخبات والخشوع والترقب، فالراجون يعبدون الله لا يشركون بعبادته أحداً ويتخذون من رسوله القدوة الحسنة، فهم طائعون قانتون آناء الليل ساجدين قائمين، يحذرون الآخرة ويرجون رحمة الله.

ذلك لأن الرجاء هو الجناح الإيجابي الذى يخفق، فيدفع إلى الأعمال الصالحة، ويسرع بالمؤمن إلى فعل الخيرات، طمعاً فى الثواب وحسن الجزاء.

والخوف هو الجناح الثانى الرادع عن الشر، الزاجر عن النكر.

فالخوف والرجاء هما جناحا الإيمان بالله واليوم الآخر، فالأول وهو الخوف زاجر وحاجز، والثانى وهو الرجاء دافع وحافز، وقد قيل فى معنى ذلك «من رجا طلب، ومن خاف هرب».

«والإيمان باليوم الآخر يعد الدعامة الأولى فى بناء الدين كله، وإذا انهار هذا الأساس انهار الدين، فلم يعد له من بقاء، فعقيدة المرء فى الحساب وأنه يجزى بعمله على الخير والشر، هى التى تدفع إلى التفكير السليم، كى يصل إلى العقيدة الصحيحة التى يؤمن بها، وإلى العمل الصالح، واجتناب مساوىء الأمور، كى يجزى على الخير بالخير ويتقى أليم العذاب»(١).

---

(١) من بلاغة القرآن- أحمد بدوى ص ٢٨٩.

أما الذين لا يرجون الله واليوم الآخر، فهم سادرون فى الطغيان راضون بالحياة الدنيا مطمئنون إليها، غافلون عن آيات الله، قد استكبروا فى أنفسهم فكذبوا الرسل وأنكروا البعث وعتوا عتواً كبيراً.

هذا وقد تتبع البحث «آيات الرجاء» فى القرآن الكريم، وهى التى ذكرت فيها «مادة الرجاء» لا أدوات الترجى.

واللافت أن مادة الرجاء كلها جاءت فى أفعال مضارعة، إلا آية واحدة ذكر فيها فعل الأمر، وذلك فى قوله تعالى ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين**﴾ سورة العنكبوت آية ٣٦.

ولعل هذا لما تفيده مادة الرجاء من معاني الترقب والتوقع التى يناسبها ما فى الفعل المضارع من معنى الحال والاستقبال، والتجدد والحدوث.

واللافت كذلك أن «مادة الرجاء» فى «الأفعال المضارعة» قد جاءت مثبتة، لتسم «فريق المؤمنين» بسمة «الرجاء» فى الله ورحمته، واليوم الآخر، والتجارة التى لا تبور، وقد أدرجت هنا الآية الكريمة ﴿**وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين**﴾ سورة القصص آية ٨٦ لاعتبار أن رحمة الله وهى «الرجاء الأعظم» ثابتة متحققة بإرسال الرسول الأمين، رحمة الله للعالمين.

كما جاءت «مادة الرجاء» فى «الأفعال المضارعة» منفية فى آيات أخرى، لتصم فريق الكافرين بالجحود ونكران لقاء الله، واليوم الآخر.

ولقد ابتدأ البحث بآيات «الإثبات» والتى تناولت فريق «الراجين المصدقين»، ثم ثنى بآيات «النفى» التى تنفى الرجاء عن «الكفرة الجاحدين».

أما آية «الأمر» بالرجاء، فقد وقعت بين الرجاء المثبت والمنفى، إذ الأمر أسلوب إنشائى، لا نفى فيه ولا إثبات.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿الرجاء مقام السالكين﴾

قال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ سورة الزمر آية ٩

والآية السابقة على هذه تناولت أحوال الضالين المضلين، الذين يجعلون لله أنداداً ليضلوا عن سبيله، وشرحت أحوالهم فى دنياهم وأخراهم فى كلمات غاية في الإيجاز «قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار» فناسب أن يردف ذلك أحوال المهتدين الموحدين.

ولقد جاء الحديث عن هؤلاء مشرقا رائعا حقا، إنهم يقضون الليل قانتين لربهم سجداً وقياماً، وقلوبهم رقيقة رهيفة تستشعر الخوف من عذاب الآخرة، وتختلج شوقا إلى الظفر برحمة الله، والفوز بجنته، فهم بين خوف زاجر رادع ورجاء حافز دافع، والخوف والرجاء من مقامات السالكين وأوصافهم الثابتة التى لا تتحول ولا تتبدل.

إن هؤلاء القانتين، الراجفين الراجين هم العلماء حق العلماء الذين هدتهم أنوار علمهم إلى الله الواحد، فعبدوه حق عبادته وكما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه. لقد أشرقت البصائر، وومضت أنوار الحق بين الجوانح، فأدركت القلوب ووعت وشاهدت وتحققت فحذرت العذاب ورجت الرحمة والثواب.

وهؤلاء العلماء العاملون لن يكونوا بمنزلة غيرهم، من الذين لم يعلموا العلم الحق، فلم يتقوا الله حق تقاته، ولم يقدروه حق قدره، فهم فى جهلهم الضال سادرون، وفى غيهم الطامس يعمهون، فإنه لا يعرف الله المعرفة الحقة ولا يعبده حق عبادته إلا أصحاب الألباب الفطنة والقلوب اليقظة المدركة الواعية، التى تعرف عظمة الألوهية وجمال الربوبية، فلا تنسى اللقاء ولا تأمن العقاب ولا تنفك راجية الجنة والراضون هاربة من الغضب وعذاب النيران.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفى القول الكريم ﴿أمن هو قانت﴾ دخلت أم على من، وفى معناه وجهان:

أحدهما: أن تكون «أم» معادلة لهمزة استفهام محذوفة مع جملتها دلت عليها «أم» لاقتضائها معادلا، ودل عليها التعقيب بـ «هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» لأن التسوية لا تكون إلا بين شيئين، فالتقدير أهذا الجاعل لله أنداداً «الكافر» خير أمن هو قانت «والاستفهام حقيقى، والمقصود لازمه، وهو التنبيه على الخطأ عند التأمل.

الوجه الثانى: «أم» منقطعة لمجرد الإضراب الانتقالى، وتقتضى استفهاما مقدرا بعدها، ومعنى الكلام دع تهديدهم بعذاب النار وانتقل بهم إلى هذا السؤال «الذى هو قانت وقائم ويحذر ويرجو» على معنى أذلك الذى جعل لله أنداداً هو قانت... فالاستفهام استعمل فى التهكم لظهور أنه لا تتلاقى تلك الصفات الأربع مع صفة جعله لله أنداداً(١).

والقانت هو العابد القائم الطائع.

والمقارنة قد أبرزت البون الشاسع بين الضال الجاهل، والقانت المخبت، وفى هذا السياق تبرز الآية الكريمة من جلائل الأعمال ما يرتفع به شأن المؤمن، ويعلو قدره، فهو قانت «آناء الليل» أوقات وساعات الليل، حين يأوى الناس إلى مضاجعهم، حتى لا تراه العيون ولا تشغله الشواغل، فتصفو النفس من الشوائب ويخلص القلب للعبادة، والقانت يقضى الليل «ساجداً وقائماً» وهما حالان مبينان ومؤكدان لمعنى القنوت والطاعة والتعبد، وإذا كان السجود والقيام من عمل الجوارح الظاهرة، فإنه ليس عملا بدنيا مجردا، إذ هو لا ينفك عن حالين آخرين هما وصفان قلبيان «يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه» فالقلب فى عمله الباطن راج راجف، والجوارح فى عملها الظاهر دائبة السجود والقيام.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١١ جـ ٢٣ ص ٣٤٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحذر والخوف الذى يعنى توقع أو انتظار ما هو مكروه للنفس، والرجاء الذى يعنى توقع أو انتظار ما فيه نعيم وملاءمة للنفس، عاملان لازمان لكل سالك درب النجاة، إذ الحذر يزجر النفس عما لا يرضى الله والرجاء يحثها على التقرب إليه، وابتغاء ثوابه والفوز بمرضاته.

والرجاء إنما ينشأ على وجود أسبابه، والمرء إنما يرجو ما يظن أنه حاصل، فهو يسعى لما يرجو ويأخذ بأسبابه، والمرء لا يظن الظن إلا إذا لاحت له دلائله ولوازمه، فالظن هنا ليس بمغالطة لأن المرء لا يغالط نفسه، وإنما يكون الرجاء أو الخوف ظنا مع تردد المظنون، أما المقطوع به من اليقين أو اليأس فكلاهما مذموم، وقد قال الله تعالي: ﴿**أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾سورة الأعراف آية ٩٩، وقال عز شأنه ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ سورة يوسف آية ٨٧[(١)].

والقول الحكيم ﴿**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون**﴾ يعنى بالذين يعلمون «العلماء العاملين «فمن لم يعمل بعلمه هو والجاهل سواء، إذ لا فائدة للعلم بدون عمل، فلن ينتفع به فى ذات نفسه، ولن يكون القدوة الحسنة لغيره، وفيه ازدراء عظيم بحملة العلم الذين لم يعملوا بمقتضى علمهم فهم عند الله جهله.

ويجوز أن يكون الكلام على سبيل التشبيه أى كما لا يستوى العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوى القانتون والعاصون[(٢)].

والتعبير بالموصول فى جانب كل من الفريقين «الذين يعلمون والذين لايعلمون» للثناء على فريق الإيمان بالعلم والتنور، وذم فريق الكفر بالجهل والضلال فأغنت الجملة بما فيها من إدماج عن ذكر جملتين، فالذين لايعلمون هم أهل الإيمان كما قال الله تعالى﴿ **إنما يخشى الله من عباده**

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١١ جـ٢٣ ص ٣٤٧ بتصرف يسير.

(٢) الكشاف جـ٣ ص ٣٩٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلماء﴾ سورة فاطر آية ٢٨، والذين لايعلمون هم أهل الشرك الجاهلون، كما قال تعالى **﴿قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون﴾** سورة الزمر آية ٦٤ وفيه إشارة إلى أن الإيمان أخو العلم، إذ كلاهما نور ومعرفة وحق وأن الكفر أخو الضلال لأن الكفر والضلال ظلمة وأوهام باطلة[١].

والقول العزيز **﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾** أسلوب قصر وقع موقع التعليل لنفى استواء العلماء أصحاب العقول اليقظة الذين يتذكرون فتنبض قلوبهم بالخشية والرجاء، وتنشغل أبدانهم بالقيام والسجود، فهم لا يستوون مع غيرهم من الأغبياء الجهلاء أهل الكفر والشرك والضلال.

والقصر «بإنما» دون غيرها من طرق القصر قد أومأ إلى أنه لا يراد من الكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، فليس الغرض هنا أن يعلم السامعون ظاهر المعنى من إثبات التذكر للعالمين العاملين، ونفيه عن غيرهم من الجاهلين الكافرين، ولكن أن يذم الكفار وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم فى حكم من ليس بذى عقل، وأنكم إن طمعتم منهم أن ينظروا ويتدبروا كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب[٢].

﴿الرسول الكريم أسوة الراجين﴾

قال تعالى **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾** سورة الأحزاب آية ٢١.

والآية الكريمة تنوه بالذين يرجون الله واليوم الآخر، فهم الذين يأتسون برسولهم الكريم فى أقواله بامتثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه، وفى أفعاله من الصبر والشجاعة. ولقد لمسوا بأنفسهم كيف كان رسولهم العظيم

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١١ جـ٢٣ ص ٣٤٩ بتصرف تام.

(٢) دلائل الإعجاز ص٣٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رابط الجأش مطمئن القلب، على الرغم من الظروف الصعبة يوم الأحزاب، إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فكان عليه السلام هو واحة الأمان ونبع الاطمئنان، فأعطى الأسوة الحسنة فى البأس والجلد والثبات والثقه فى الله، وتيقن ما وعد به من الغلبة والظفر.

وقد جاء هذا نهاية شوط طويل تنقل فيه آيات سورة الأحزاب، ما كان من المنافقين والمعوقين والذين فى قلوبهم مرض يوم الأحزاب من الأقوال المشككة والأفعال المثبطة، وما ظهر عليهم من الذعر والهلع وما تنطوى عليه صدورهم من الغل والضغن ﴿**فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا**﴾ سورة الأحزاب آية ١٩.

والرسول الكريم قدوة حسنة للمؤمنين جميعا، ولكن المخبتين المترقبين لقاء الله الراجين ثوابه فى الآخرة والذين وضعوا ذلك نصب أعينهم قد اختصوا بالذكر وأفردوا بالتنويه لأن هذا الترقب وذلك الرجاء هو عنوان التقوى ودافع التحرى للاقتداء، ودقة الائتساء أملا في النجاة والخلاص ورغبة فى الفوز والظفر. واقتران الخبر فى قوله عز وعلا ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة**﴾ بحرفى التأكيد «لقد» يومىء إلى التعريض بالتوبيخ للذين لم ينتفعوا بالأسوة الحسنة من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض. والأسلوب العزيز «فى رسول الله» هو أسلوب تجريد لإفادة المبالغة حيث يجرد من الموصوف بصفة موصوف مثله متصف بالصفة ذاتها، ومتعلق الائتساء إنما هو ذات رسول الله ﷺ دون وصف خاص له ليشمل الائتساء به في الأقوال والأفعال، والأسوة اسم لما يؤتسى به أى يقتدى ويعمل مثل عمله[١].

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٠ جـ٢١ ص ٣٠٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فانظر إلى البلاغة البالغة فى هذه الجملة الكريمة «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة» والتى نوهت بشأن الأسوة والمؤتسين، فالرسول فى ذاته هو نبع الاقتداء، وفيض المثل، وهذا النبع النقى و الفيض الصافى يتأكد ويتحقق الاقتداء به والائتساء بأقواله وأفعاله، ولكن لن يكون ذلك للمأفونين من المنافقين والمعوقين من ذوى الطباع الفاسدة والنفوس السقيمة، ولكن الذين ينتفعون بالقدوة ويستنيرون بالأسوة، إنما هم جماعة المؤمنين الراجين لقاء الله واليوم الآخر.

والقول الكريم ﴿**لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**﴾ «لمن كان» بدل من الضمير فى «لقد كان لكم» بدل بعض من كل، أو بدل مطابق إن كان المراد بضمير «لكم» خصوص المؤمنين، واللام فى البدل «لمن كان» توكيد للام فى المبدل منه «لكم»[(١)].

فالذين يأتسون برسول الله ﷺ هم المؤمنون المتسمون بالمراقبة والرجاء والذكر الكثير الدائم لله عز وجل، والتعريض لائح بفريق المنافقين الذين حال بينهم وبين النور الهادى وصدهم عن الائتساء بالقدوة الحسنة ما كانوا عليه من النفاق ومرض القلوب فهم لا يتوقعون لقاء الله ولا يرجون ثوابه، يوم يبعث عباده.

﴿والخليل إبراهيم والذين معه أسوة المؤمنين المهاجرين﴾

قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد**﴾ سورة الممتحنة آية ٦.

فالمؤمنون الذين يرجون الله واليوم الآخر لهم قدوة حسنة فى الخليل إبراهيم والذين معه وقد سبق ذكر ذلك فى الآية ٤ «قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه...»

---

(١) نفسه ص ٣٠٣.

ففيهم الأسوة الحسنة التى يؤتسى بها والمذهب الحسن الذى يتبع، فقد كاشفوا الكفار من قومهم بالعداوة، وأظهروا البغضاء والمقت، وقالوا لهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده.

وكان بعض المهاجرين ما تزال نفوسهم تواقة إلى أقرباء لهم بمكة، يودون محاسنتهم ومودتهم ومهادنتهم، وانتهاء العداوة التى تشعل القتال بينهم وبين أهليهم من ذوى قرابتهم.

والآية الكريمة تبين أن الذين يرجون لقاء الله، لا يوالون أعداءه ولو كانوا أقرب الناس إليهم، والأسوة الحسنة فى ذلك أبو الأنبياء خليل الله إبراهيم عليه السلام والذين معه.

وقوله الكريم ﴿**لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة**﴾ تكرر فيه الائتساء السابق فى قوله تعالى ﴿**قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه...**﴾ سورة الممتحنة آية ٤.

وقد تكرر الائتساء للحث على الاقتداء، ثم جاء الأسلوب فى غاية التأكيد حيث اقترن بلام القسم، وأبدل عن قوله «لكم» قوله «لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» ثم عقب بقوله «ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد» فلم يترك نوعا من التوكيد إلا جاء به[(١)].

ولعل هذا التأكيد يرجع إلى مدى المعاناة فى معاداة الأقارب من الكفار، وأنها تحتاج إلى إيمان راسخ مكين، وطاقة من اليقين تجعل المؤمن يتبرأ من كل مائق عن دين الله حتى ولو كان من أهله وعشيرته.

والأسوة في إبراهيم والذين معه إنما تكون «لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» فإن رجاءهم فى الله ومراقبة اليوم الآخر، يجعلهم يقدمون رجاء الله ورضوانه على كل ما سوى الله.

---

(١) الكشاف جـ٤ ص٩١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقول الكريم «لمن كان يرجو» وقع بدلا من ضمير المخاطبين فى «لقد كان لكم» الذى يشمل جميع المخاطبين وهم المؤمنون، وليس ذكر «لمن كان» تخصيصا لبعضهم ولكنه ذكر للتذكير بأن الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضى تأسيهم بالمؤمنين السابقين، إبراهيم والذين معه، وقد أعيد حرف الجر العامل فى المبدل منه «لكم» لتأكيد أن الإيمان يستلزم ذلك والقصد زيادة الحث على الائتساء بإبراهيم والذين معه.

وقوله الكريم ﴿ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد﴾ يعنى من لا يرجو ويعرض فإن الله هو الغنى عن المتولين، وضمير الفصل فى قوله «فإن الله هو الغنى الحميد» لتأكيد الحصر المستفاد من تعريف الجزأين وهو قصر ادعائى يفيد عدم الاعتداد بغنى غيره ولا بحمده.

والتتميم بوصف الحميد يعنى أنه الحميد لمن يمتثل أمره أو الحميد لمن لا يتخذ عدوه وليا (١).

﴿الرسول رحمة الله للعالمين﴾

قال تعالى ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ سورة القصص آية ٨٦.

والآية الكريمة تفيد أن الرسول الكريم لم يكن يترقب أن ينزل عليه القرآن بل الله أعطاه إياه بمحض رحمته، فلم يكن الرسول عليه السلام يتطلع إلى ذلك وإنما هو اختيار الله له رحمة منه بنبيه وبالبشرية جمعاء التى اختاره لهدايتها بالرسالة.

ومن ثم فلا تكونن ظهيراً للكافرين بعد أن اختارك الله واصطفاك وخصك بالرسالة وأنزل عليك الكتاب، لا تكن معيناً لهم أدنى معاونة حتى ولو كان من قبيل المصانعة بل اغلظ عليهم وجاهدهم جهاداً كبيراً.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٣ جـ٢٨ ص ١٤٩ بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقـول الكريم ﴿**وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب**﴾ فيه استعارة إلقاء الكتاب حيث أطلق ذلك على الوحى بالكتاب إليه وإنزال القرآن عليه.

والاستثناء فى «إلا رحمة من ربك» إنما هو استثناء منقطع، لأن النبى ﷺ لم يخامر نفسه رجاء أن يبعثه الله بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد رحمة من الله واختيار واصطفاء.

وفى الكشاف(١) «إلا رحمة من ربك» استثناء محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك، ويجوز أن يكون «إلا» بمعنى «لكن» للاستدراك أى ولكن لرحمة من ربك ألقى عليك الكتاب. ١هـ.

وقوله الكريم ﴿**فلا تكونن ظهيراً للكافرين**﴾ هو تعقيب بالتحذير من أدنى مظاهرة للكافرين، ذلك لأن فعل الكون الواقع فى سياق النهى أفاد تعميم النهى عن كل كون من أكوان المظاهرة للكافرين، والظهير المعين، فالنهى هنا يشمل جميع أكوان المظاهرة مما يستلزم الأمر بالضد، فيكون كناية عن الأمر بالغلظة عليهم إلى أن يرتدعوا عن الإجرام والكفر والإشراك(٢).

﴿توجيه كريم للرحمة المهداة﴾

قال تعالى: ﴿**وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا**﴾ سورة الإسراء آية ٢٨.

والآية الكريمة توجيه كريم إلى الإحسان إلى ذى القربى والمسكين وابن السبيل، بالقول الميسور، إن لم يكن في المقدور الإحسان إليهم بالمنح والإعطاء.

والخطاب للرسول الكريم على معنى إن أعرضت عنهم حياء من التصريح بالرد ورحمة لهم بسبب قلة ذات اليد، فقل لهم قولا لينا ميسورا.

---

(١) جـ٣ ص ١٩٤.

(٢) التحرير والتنوير مجلد ١٠ جـ٢٠ ص ١٩٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفى اللطائف: فإن لم يساعدك الإمكان على ما طالبوك من الإحسان فاصرفهم عنك بوعد جميل إن لم تسعفهم بنقد جزيل، فإن وعد الكرام أهنأ من نقد اللئام (١).

وفى الكشاف : إن لم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، فقل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله، على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم (٢).

وقوله تعالى ذكره ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ يعنى إن أعرضت انتظار الرزق، فسمى الرزق رحمة وابتغاؤه انتظاره وطلب تيسير الله به.

فابتغاء الرزق كناية عن القلة و الفقر لأن فاقد المال يطلب ويبتغى رحمة الله وإحسانه، فالابتغاء وضع موضع الفقر، وفقد الرزق، لأن فاقد الرزق مبتغ له فالفقد سبب الابتغاء، والابتغاء مسبب عنه فوضع المسبب موضع السبب (٣).

وقوله جل ثناؤه «فقل لهم قولا ميسورا» لينا سهلا يطيب النفوس، فلا يضيق صدره بهم ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق فى سكوته، ففى القول الميسور عوض وأمل وتجمل.

﴿الرجاء بشارة الله للمؤمنين المهاجرين﴾

قال تعالى ذكره :﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ سورة البقرة آية ٢١٨.

---

(١) لطائف الإشارات جـ٤ ص ١٧.

(٢) الكشاف جـ٢ ص ٤٤٧.

(٣) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى مجلد ١٠ ص ١٩٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والآية الكريمة مسبوقة بالسؤال عن القتال فى الأشهر الحرم، فى مناسبة وقوع ذلك من سرية «عبد الله بن جحش» فى اليوم الأول من شهر رجب، ظنا منه أنه من جمادى الآخرة.

فذكرت الآية السابقة أن القتال فى الأشهر الحرم كبير، وأكبر منه ما يرتكبه الكفار من فظائع بهدف فتنة المسلمين عن دينهم، ثم أنذرت الآية المرتدين بحبوط أعمالهم، وبأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون.

ثم جاءت آية الرجاء عقبها، لتبين حال المؤمنين الراسخين في الإيمان فهي في موقعها من باب تعقيب الإنذار بالبشارة[١].

والآية الكريمة جاءت فى هذا السياق لتنشر جو الطمأنينة، وتبشر هؤلاء الذين قاتلوا وقتلوا وأسروا، فى الشهر الحرام دون قصد، من خلال البيان القرآنى العظيم الذى تتضافر فيه المعانى والمفردات والعبارات على إشاعة الشعور بالاطمئنان، والرجاء فى العفو والصفح والرحمة والرضوان.

فلقد ابتدأت الآية الكريمة بأداة التوكيد «إن» التى تقوى المعنى وتؤكده، حتى يرسخ فى النفس، ويتمكن فى الحس والشعور، فالتأكيد هنا هو مقتضى حال الترقب، والتوجس الذى انتاب قائد سرية رسول الله ﷺ، ورفاقه.

والتوكيد من الوسائل البلاغية التى استخدمها القرآن الكريم فى كل الأغراض، لأنها تكسب الأساليب قوة، وتستشعر فيها النفوس بمعانى الفخامة والعظمة[٢].

ويبدو أن هذا يرجع إلى ما ينطوى عليه أسلوب التوكيد من معانى التيقن والتثبت والقوة والرسوخ.

وإذا انتقلنا من هذا التوكيد الجزل الفخم الذى ابتدأت به الآية، والذى أضفى على المعنى قوة وعلى المبنى جزالة، فإننا نجد البيان العزيز يؤثر التعبير

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١ ج٢ ص ٣٣٧ بتصرف تام.

(٢) من بلاغة القرآن أحمد بدوى ص ٢٤٤ بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن أفراد السرية، بالأسماء الموصولة، دون التعبير بأسماء الأعلام أو الأوصاف المعرفة بأل «مثلا».

وهذا فضلاً عما يعطيه من معانى الشمول والعموم، فإن فى صلة الموصول «آمنوا، هاجروا، جاهدوا» إيماء إلى الخبر وإيحاء به وتشويقا إليه، فهى الحيثيات القوية التى ينبنى عليها الحكم المرتقب، وهو رجاء الرحمة والمغفرة.

فالاسم الموصول بما يتطلبه من جملة الصلة التى تضمنت تلك الأوصاف العظيمة والأعمال الجليلة «الإيمان والهجرة والجهاد» يقوى فى النفس الراهبة رجاء رحمة الله والأمل فى غفرانه. ولقد جاء الموصول مرة مع الإيمان منفردا، ومرة مع الهجرة والجهاد معا.

وتلك دقيقة تناولها أبو حيان فى البحر المحيط قائلاً:

«وقد احتوت هذه الجملة- يقصد قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله**﴾ - على ثلاثة أوصاف، وجاءت مرتبة بحسب الوقائع والواقع، لأن الإيمان أولها ثم المهاجرة ثم الجهاد فى سبيل الله ولما كان الإيمان هو الأصل أفرد به موصول وحده، ولما كانت الهجرة والجهاد فرعين عنه أفرد بموصول واحد، لأنهما من حيث الفرعية كالشيء الواحد»(١).

وقد يمكن القول أيضاً بأن الهجرة تنضوى تحت لواء الجهاد إذ هى لون من ألوانه، إذا اتسعنا في معناه حتى يشمل الجهاد بالنفس والمال وغيرهما، فهى لفظة دينية إسلامية، يمكن إطلاقها على كافة الأعمال والأقوال الداعية للدين الناصرة للإسلام الذائدة عن حياضه.

ولكن الداعى إلي النظر، أن الآية الكريمة انفردت بتكرار اسم الموصول على هذا النظم دون أخواتها ففى سورة الأنفال ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا**

---

(١) البحر المحيط ج٢ ص ١٥٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ آية ٧٢، وفى سورة التوبة **﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾** آية ٢٠.

وقد تأملت فى ذلك فلم أجد إلا السياق الذى جاءت فيه آية البقرة، فإنه يقتضى التكرار، الذى يزداد به التعبير تأكيدا، وتزداد به القلوب المتوجسة التى قاتلت وقتلت فى الأشهر الحرم طمأنينة.

وفى التحرير والتنوير يقول الطاهر بن عاشور: «وكرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء»[(١)].

ولعل قوله: «فى تحقيق الرجاء» هو إشارة إلى المناسبة والمقام الداعى إلى تكرار الموصول.

ومما يجب التفطن إليه أن «الواو» إنما جاءت للعطف بين الصفات المتغايرة، إذ لا تغاير بين الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا، فالأوصاف هى التى تعددت لموصوف واحد، لأن الذين آمنوا هم الذين هاجروا وجاهدوا.

والبيان العزيز لم يأت بصلة الموصول من الفعل الثلاثى «هجر وجهد» وإنما جاءت من الفعل الرباعى «هاجر وجاهد» وذلك لما تفيده «صيغة المفاعلة» من المبالغة فى الهجر والجهاد، كما توحى بأن الهجر ناشىء عن عداوة من الجانبين كأن كلا الطرفين يهجر الآخر ويطلب الابتعاد عنه.

وكذلك الجهاد لأن المجاهد يبذل جهده فى قتال من يبذل جهده كذلك لجهاده، فالمفاعلة حقيقية[(٢)].

والإشارة في «أولئك يرجون رحمة الله» تتجه إلى الموصوفين بالصفات الكريمة السابقة، فأفادت أن ذلك الفوز العظيم بالرحمة والمغفرة، إنما يكون على قدر سمو أوصافهم من الإيمان بالله ثم المهاجرة والمجاهدة فى سبيل الله،

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١ جـ٢ ، ص ٣٣٧.

(٢) التحرير والتنوير مجلد ١ جـ٢ ص٣٣٧ بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكأن الإشارة (على هذا) تؤكد وتحقق الرجاء الكريم، والتفضل العظيم الذى كان «اسم الموصول» فى بداية الآية قد أومأ إليه، ودل عليه.

وفى النظم العزيز جاء الفعل «يرجون» فى «جملة خبرية» لاسم الإشارة «أولئك» فلم يقع خبرا مباشرأ للحرف الناسخ (إن) الذى جاء خبره جملة اسمية مصدرة بأولئك وذلك لأن اسم الإشارة «هو المتضمن للأوصاف السابقة من «الإيمان والهجرة والجهاد».

فضلا عن أن المسند «وهو هنا خبر إن» إذا جاء جملة كان ذلك أكثر تقوية للحكم، وأشد تأكيدا للمعنى المراد.

وفى اختيار فعل الرجاء «يرجون» وكونه فى صيغة المضارع ما يفيد معنى التوقع، والظن غير المتيقن، وأنه ظن متجدد ومستحدث، مما يلقى فى روع المؤمنين المهاجرين المجاهدين بعدم الاتكال على أعمالهم، مهما عظمت، فإن الفوز بالجنة ليس أمراً من الأمور التى يمكن القطع بها، وغاية المؤمن أن يرجو الرحمة من الله وأن يترقب الخير ويأمله، وأن يغلب على ظنه حصوله والطمع فى نواله.

ومع هذا فإنه يجب الحذر كل الحذر من اليأس من رحمة الله، فإن اليأس والقنوط من رحمة الله التى وسعت كل شىء، هو أمر مستنفظع، وقد قال الله تعالى: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ سورة يوسف- آية ٨٧، فالذى ينبغى للمؤمن أن يتسلح بالخوف والرجاء فى صراعه المحتدم بينه وبين النفس الأمارة بالسوء، والتى تنزجر عن المعاصى بالترهيب، وتنشط للطاعات بالترغيب، إذ هى مجبولة على الإقدام على ما يعود عليها بالمنفعة والمسرة، والإحجام عما يجلب عليها المساءة والمضرة، وفى الكشاف «جعلهم أهل رجاء، ومن رجا طلب ومن خاف هرب»(١).

---

(١) جـ١ ص ٣٥٧.

وقد جاء الرجاء هنا في «رحمة الله» ورحمة الله هى المغفرة والجنة، والخير والنعمة، فإن الرحمة بمعناها الحقيقى الذى يعنى التعطف، والتحنن ورقة القلب، يستحيل حقيقتها على المولى عز وعلا، وقد قال العلماء «كل صفة يستحيل حقيقتها على الله تعالى، تفسر بلازمها»(١).

وتنتهى الآية الكريمة بختام تقوى به معانى الرجاء، لدى النفوس المؤمنة «والله غفور رحيم» فالوصف بالغفران والرحمة وفى صيغة المبالغة، أمل تحيا به الأرواح، ويبعث فى القلوب السكينة والطمأنينة.

وبعد فإن النظم القرآنى المعجز لا يسبر غوره، ولا طاقة لمخلوق إدراك كنهه، وليس فى مقدورنا إلا أن نطيل التدبر والتأمل، راجين الله أن يفتح علينا بما فيه التوفيق والسداد.

وهنا نعود ونقرأ الآية الكريمة مرة أخري، لنتأمل تلك الصياغة، التى تتبدى فيها روعة النظم القرآنى والذى لم يرد على لسان إنسان على كثرة كلام الناس.

وفضلا عما سبق فإننا لنحس بفخامة ذلك النظم الجليل البادىء بالتأكيد «إن» الداخل على اسم الموصول، الذى تكرر نابضا بالأوصاف الفارهة، للمؤمنين الصادقين المهاجرين المجاهدين تلك الأوصاف التى أضفى عليها التعبير القرآنى، ظلالا روحية شفيفة، تتدفق فى النفوس الراشدة، فيوضا من معانى الإجلال والإعظام، مما يشعر به كل قارىء للكتاب العزيز. ثم يجيء الإخبار عن الناسخ، بالجملة الاسمية المصدرة باسم الإشارة «أولئك» الدال على بعد المنزلة الموحى بسمو المرتبة.

ومن بعد كل ذلك يجيء المعنى المرتقب المتشوق إليه، وهو «رجاء رحمة الله» الذى طال انتظاره، منذ بداية الآية الكريمة، فكان هو الأمل المرتغب،

---

(١) الإتقان جـ٣ ص ٢٠.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والنبأ المنتظر الذى أثلج الصدور وأسعد النفوس، وناهيك برحمة الله من رجاء عظيم، تتحقق لمن ظفر به سعادة الدارين.

ثم يأتيك من بعد ذلك الختام الشفيف «والله غفور رحيم» في حنو وتعطف، والذى يتكرر فيه لفظ الجلالة للمرة الثالثة، فيقوى رجاء الراجين فى الله، ويضاعف الأمل فى رحمته وغفرانه.

وفى النظم الكريم إيقاع وتناغم، يواتى المعانى وتواتيه دون قسر أو إكراه، فهى تترقرق من خلاله، منسابة فى سلاسة واتساق.

وإنك لتحس بذلك إذا رددت- سرا أو جهرا- القول الكريم ﴿ **وجاهدوا فى سبيل الله، أولئك يرجون رحمة الله**﴾. وإنك لتحس ذلك التناغم وذاك الإيقاع، فيما بين الأفعال- آمنوا- هاجروا- جاهدوا- تلك الأفعال الماضية التى اقتضاها المعنى ونادى عليها، كيما تدل على رفعة شأن الموصوفين الراسخين فى إيمانهم، الثابتين فى جهادهم، من حيث قد علم، أن الأحداث فى الأزمنة الماضية، هى أحداث متقررة مكينة راسخة.

ثم اسمح لخاطرك أو لخيالك، أن تتصور الفعل المضارع «يرجون» الذى وقع فى جملة الخبر، كأنه يقع فى معادلة الأفعال الماضية السابقة التى وقعت فى صلات الأسماء الموصولة، فإنك سوف تتمثل ذلك الرجاء عظيما جليلا، ذا وزن يرجح فى ثقله الأفعال الثلاثة- آمنوا وهاجروا وجاهدوا- تلك الأفعال الصادرة من مخلوقين مشمولين «برحمة الله» الذى هداهم للإيمان، وأعانهم على الهجرة والجهاد.

ثم تصور أو تخيل- وأنت لا زلت فى سماء التحليق- ذلك الإيقاع والتناغم، بين التأكيد الواقع فى صدر الجملة «إن الذين آمنوا...» وبين التأكيد الواقع فى عجزها «أولئك يرجون رحمة الله» كدعامتين قويتين ترتكز عليهما جملة الرجاء فى رحمة الله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿الرجاء قوة تشد أزر المجاهدين﴾

قال تعالى: ﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لايرجون وكان الله عليما حكيما﴾ سورة النساء آية ١٠٤.

وأسلوب النهى فى صدر الآية يستصرخ المتقاعسين عن القتال ويدفعهم دفعا قويا إلى ساحات الوغى، وينفر من الجبن والخور والتخاذل، وإيثار السلامة، فإن الوهن والضعف شين تعافه أنفس الكماة.

وهذا فضلاً عن أن التحذير من الوهن والضعف فى طلب الأعداء، هو توجيه يحمل فى طياته أعظم أسباب النصر فإن الإقدام والجسارة والتسلح بالإدارة الصلبة، والعزيمة القوية التى ترتفع بها الروح المعنوية للمقاتلين تجعلهم يسددون الضربات القاصمة التى تفل القوى وتكسر حدة الشوكة.

ونلحظ هنا أن النهى ليس عن الوهن والضعف فى الاقتتال، ولكن «فى ابتغاء القوم» أى فى طلبهم وتتبعهم ذلك لأن النهى عن الشىء يستلزم الأمر بضده، فهو أمر بالطلب والابتغاء، والمبادأة بالضربة الأولى التى تفجأ العدو وتفقده التوازن منذ الوهلة الأولى، فضلا عما تفعله المبادأة من إلقاء الرعب الشديد فى قلوب الأعداء.

وهذا- وبلا ريب- درس في فنون الحرب، ينبغى على المسلمين الحرص عليه مع الأعداء المتربصين بهم الدوائر، حتى لا يعطوهم فرصة الهجوم المفاجىء عليهم فى عقر دارهم، وفى هجمة شرسة تعظم فيها الخسائر فى الأرواح والسلاح، فإنه ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا وهزموا وجللهم الخزى والعار.

وجملة النهى «ولا تهنوا فى ابتغاء القوم» على وجازتها، جاءت صاخة مدوية، كأنها زأرة نفير، يستنهض الجيش ليهب لقتال الأعداء الصائلين

ومجالدتهم، فالجملة الكريمة- وفى كلمات معدودة- قد أزرت بالوهن، ودفعت بالمجاهدين دفعا قويا إلى المهاجمة والمبادأة وذلك لأن الوهن هنا ليس على حقيقته في التعبير عن ضعف القوة الجسدية أو غيرها من القوى الإنسانية الذاتية كما فى قوله تعالى ﴿رب إنى وهن العظم منى...﴾ ولكن الوهن المنهى عنه هو مجاز في خور العزيمة، وضعف الإرادة، وانقلاب الشجاعة جبنا، ولذلك نهوا عنه إذ هو حالة نفسية خانعة تنجم عن اعتقاد الخيبة والإحساس بالفشل، فيترتب عليها الخنوع والاستكانة والتجافى والتباعد عن ساحات الصيال، فالنهى عن الوهن في الحقيقة هو نهى عن سببه، وهو الخور القلبى والاعتقاد النفسى المتوجس(١).

فكلمة «الوهن» على هذا، وبما تنضح به من معانى «الخور والجبن والتوجس» أمر تأنفه أنفس الشجعان، فلا مناص من «الابتغاء» وطلب الأعداء، ومبادأتهم والانقضاض عليهم.

وعقب هذا النهى الشديد الأصر، تنساب معانى التأسى والتعزى والتشجع من خلال جملة الشرط «إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون» فتداوى الجراح النازفة وتخفف الآلام المبرحة، فهى تصيب الأعداء مثلما تصيبكم وتؤلمهم كما تؤلمكم ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فأنتم أولى منهم بالثبات والتصبر والتشجع، «وهنا يتجلى المنهج القرآنى الربانى، في التعامل مع النفس البشرية فى قوتها وضعفها، ونرى- على الأخص- كيف يملأ مشاعر الجماعة المسلمة بالتفوق على العدو، فى الوقت الذى يملأ نفوسها بالحذر والحيطة....

إن المؤمنين يحملون الألم والقرح فى المعركة، ولكن ليسوا وحدهم، إن الأعداء كذلك، تنالهم القرح واللأواء، لكن شتان بينهما، المؤمنون يتجهون

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٣ ج٥ ص٩٨، ٩٩ بتصرف تام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى الله، والكفار ضائعون مضيعون، وهذا هو العزاء العميق ومفرق الطريق»[١].

فجملة الشرط هنا «إن تكونوا تألمون...» قد وقعت موقعها الملائم، استئنافية مسوقة للتسلية والتعزية، وتعليل للنهى، مما يجعل المعنى، إن تكونوا تألمون فلا تهنوا ولا تقاعسوا فيكون قوله تعالى ﴿فإنهم يألمون﴾ ليس هو جواب الشرط فى المعنى، ولكن يدل عليه، وعلى طريقة الإيجاز البليغ.

«وترجون من الله ما لا يرجون» وتلك ميزة تنفردون بها، فإذا تشاركتم مع أعدائكم في الألم والجراح، فإنكم تنفردون دونهم بالميزة العظمى، وتظفرون بالغاية السامية، لأنكم مؤمنون ترجون من الله ما لا يرجون وهو الشهادة وظهور الدين الحق والثواب فأنتم الظافرون على كل حال، وهذا وعد للمسلمين المجاهدين بالنصر والمثوبة، أما المشركون فإنهم لا يرجون لأنفسهم نصرا ولا ثوابا وعاقبتهم الهزيمة والنار.

«وكان الله عليما حكيما» تذييل يناسب المعانى المذكورة وتناسبه، فالعليم يعلم كيف تعتلج المشاعر فى القلوب، ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح، فى وجه الآلام والمتاعب، حكيم، لا يأمركم ولا ينهاكم إلا لما هو عالم به مما يصلحكم[٢].

﴿المقربون يرجون الرحمة ويرهبون العذاب﴾

قال تعالى: **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم**

(١) فى ظلال القرآن ج٢ ص٧٤٩.

(٢) الكشاف ج١ ص ٥٦١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ سورة الإسراء آية ٥٦، ٥٧.

الله جل جلاله هو الإله الحق، المتفرد بالوحدانية والقدرة والجبروت، وهؤلاء الذين يدعون من دونه آلهة أخرى، قد ضلوا الطريق وتاهوا في الضلالة العمياء، ويكفى دليلا على العمى وزيف المعتقد أن ينظروا فى حقائق ملموسة لائحة للعيان، فهؤلاء الذين زعموهم من دون الله هم في غاية العجز والضعف وعدم القدرة، حتى إنهم لا يستطيعون إزالة الضرر النازل بمن يعبدونهم، أو أن يحولوه عنهم إلى غيرهم، فضلاً عن أن يحققوا لهم نفعا، الأمر الذى يتنافى مع أوصاف الكمال اللائقة بمقتضى الربوبية الحقة.

والبيان الحكيم يدعو هؤلاء الغافين الغافلين إلى شيء من الفكر والنظر، فإن عقيدتهم المتهافتة سوف تنهار أمام المنطق السليم، وسوف تنطمس وتنمحى إذا سطعت أنوار العقل المبهرة.

وأكثر من ذلك، فإن أولئك الذين يدعونهم ويعبدونهم وفيهم الملائكة والجن والرسل كالعزير وعيسى بن مريم، هم أنفسهم عبيد من عباد الله يبتغون إليه الوسيلة ويتنافسون في التقرب والتزلف إلى الله، بل إنهم يرجون رحمة الرحمن الرحيم، ويرهبون العذاب الشديد، الذى ينبغى أن يحذر منه كل أحد، من ملك مقرب ونبى مرسل، فضلا عن غيرهم.

ومعنى الأمر بالدعاء فى قوله تعالى **﴿ادعوا الذين زعمتم﴾** أى استغيثوا بمن زعمتم آلهة، كى يستنقذوكم حين تكونون فى أمس الحاجة إلى قوة عظمى تنتشلكم من براثن الضراء، إذا حلت بساحتكم، فإنهم لا يملكون ذلك ولن يكون فى وسعهم.

وكلمة «زعمتم» أوحت بمعانى الكذب والافتراء، «ولهذا يجىء فى القرآن فى كل موضع ذم القائلون به»(١) والمراد ادعوا واطلبوا لكشف الضر

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣١٢.

عنكم، من زعمتموهم وادعيتموهم آلهة ادعاء الكذب والبهتان والافتراء، والمفعولان محذوفان للعلم بهما.

والغرض هو إبطال الاعتقاد الراهن فى ألوهية العاجز عن الإنجاء والإنقاذ، فأمروا بالتجربة وحثوا عليها، ثم سيقت إليهم النتائج القطعية «فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا».

والملك يعنى الاستطاعة والقدرة «والكشف مستعار للإزالة»(١) فكأن الضر غطاء ينكشف ويرتفع ويزول وينقشع.

والتحويل الذى يعنى نقل الشىء من مكان إلى مكان، أو تبديله من حالة إلى حالة لا طاقة لهم به، فهم لا يستطيعون إزالة الضر نهائيا، ولا حتى تخفيفه وتبديله بألطف منه، أو تحويله عن الأشياع والأتباع إلى غيرهم.

وقوله ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب**﴾:

أولئك مبتدأ والذين صفته ويبتغون خبره، وأولئك إشارة إلى الآلهة التى زعموها، وفيها يعبدون الإنس والجن والملائكة من دون الله، فأعلمهم علما لطيفا، بأن أولئك الذين «يدعون» أى يدعونهم آلهة، هم أنفسهم «يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب» أى يطلبون وينشدون التقرب والتزلف إلى ربهم.

و«أيهم أقرب» يعنى يبتغى من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله، فأى موصولة بدل من واو يبتغون، أو أن الفعل «يبتغون» قد تضمن معنى «يحرصون» فيكون المعنى يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح(٢).

وليس هذا فحسب، وإنما هم يتقربون ويتزلفون، وهم على قربهم وصلاحهم شأنهم شأن غيرهم من الخلائق، يرجون الرحمة من الله ويخافون

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٧ جـ١٥ ص ١٣٩.

(٢) ينظر الكشاف جـ٢ ص ٤٥٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عذابه، وبالجمع بين الخوف والرجاء تكتمل العبادة ويستقيم القلب، فأما الخوف فبه ينكف العبد عن المناهي والمعاصي وأما الرجاء، فإنه يدفع إلى الاستكثار من الطاعات والقربات.

والأبرار الأخيار- من بين الناس- يرتقون درجات الكمال، فيتسنمون الذروة في الخشية و﴿يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾(١).

فهل ينزجر هؤلاء الذين اجترأوا على الله، ممن ينحدرون في دركات الشرك والضلال؟!.

والتذييل في «إن عذاب ربك كان محذورا» تأكيد لمعنى «ويخافون عذابه» والمعنى في جملة التذييل، قد تأكد «بإن» وتحقق بـ«كان» وازداد تأكداً وتحققاً بالجملة الاسمية، فهو عذاب عظيم جدير بأن يخشى ويحذر.

فهل يستوعب المعاندون هذا الدرس الواضح، وهل يثوبون إلى رشدهم، فيعبدوا الإله الأعظم ويوحدوه ويمجدوه ولا يتجهون إلا إليه في رجائهم إذا رجوا، ولا يرهبون إلا عذابه إذا رهبوا.

﴿العمل الخالص وسيلة الراجين لقاء الله﴾

قال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ سورة الكهف آية ١١٠.

والآية الكريمة على وجازتها تشتمل على الأصول الأصيلة في الدين، وتسطع بها الأنوار الكاشفة عن لباب العقيدة السماوية، وقد ابتدأت ببيان واضح قوي كاشف عن الرسالة والرسول، فخاتم الأنبياء والمرسلين إنما هو بشر،

---

(١) سورة المؤمنون آية ٦٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يتعدى البشرية إلى العلم بالغيب، وهو إنما يتلقى الوحى والعلم من لدن رب العالمين الذى لا تحد علمه الحدود **﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا﴾** سورة الكهف آية ١٠٩.

إن الرسول مرسل بنور من الله يهدى به سبله، فهو يتبع الوحى، ويبلغ ما أمر بتبليغه عن التوحيد والشريعة، وما شاء الله أن يخبر به عباده من أحوال الأمم الماضية، والقرون الخالية، مما اقتضت حكمة الله إعلام خلقه به.

ويأتى على رأس ما أوحى إليه، الإيمان بالله الواحد، والأمر بالأعمال الصالحة، لمن كان يرجو حسن لقائه، ويتطلع إلى رضوانه يوم الوقوف بين يديه.

وهذا هو الصراط المستقيم الذى لا طريق سواه: العمل الصالح، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، فلا يرائى بالعمل ولا يبتغى بالعبادة إلا وجه الله خالصا.

والقصر فى قول الله عز وجل «إنما أنا بشر مثلكم»، هو قصر موصوف على صفة قصر إضافى للقلب، فيكون معناه ما أنا إلا بشر، أى لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالغيب، وأدمج فى هذا أهم ما يوحى إليه، وما بعث من أجله» يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد...» وهو توحيد الله، والسعى لما فيه السلامة عند لقائه.

والقصر فى «إنما إلهكم إله واحد» قصر إضافى للقلب، فيكون معناه يوحى إلى توحيد الإله، وانحصار وصفه فى صفة الوحدانية، دون المشاركة، «وأنما» المفتوحة الهمزة أخت «إنما» المكسورة الهمزة، مركبة من أن وما الكافة، وهى تفيد ما تفيده «أن» المفتوحة من المصدرية، وما تفيده «إنما» من الحصر.

«فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» فمن كان يرجو تفريع من جملة الموحى به إليه، أو المعنى يوحى إلى بوحدانية الإله، وبإثبات البعث والأعمال الصالحة، وقد جاء النظم بطريقة بديعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى إفادة الأصول الثلاثة، إذ جعل التوحيد أصلها، وفرع عليه الأصلين الآخرين (١).

و«يرجو»، يطمع، ولقاء ربه، على تقدير محذوف، أى حسن لقاء ربه وقيل يرجو أى يخاف سوء لقاء ربه، أى لقاء جزاء ربه وهو العقاب والعذاب. وحمل الرجاء على بابه أجود لبسط النفس إلى إحسان الله تعالى، وحسن ثوابه (٢).

والقول الكريم ﴿**ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**﴾ تأكيد للإخبار عن الوحدانية، بالنهى عن الإشراك بعبادة الله تعالى.

﴿القربات تجارة الراجين﴾

قال تعالى: ﴿**إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور. ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور**﴾ سورة فاطر آية ٢٩، ٣٠.

القول الكريم يشير هنا إلى المؤمنين بربهم صدقا، العارفين الله حقا، فيبين أوصافهم التى بها يتسمون، وأعمالهم التى عليها يدأبون وبها ينشغلون، ثم يبين رجاءهم المنشود، ومقصدهم المأمول، إنه الفوز العظيم، والفضل الكبير، والخلود فى جنات النعيم.

والآية الكريمة ﴿**إن الذين يتلون...**﴾ تذكر التجارة المحببة إلى قلوب الناس، والتى ينشغل بها أهل الدنيا، من المتاجرين فى متاعها القليل، فيربحون الربح الوفير، الذى يفرحون به فيتطايرون فرحا، أو يخسرون الخسارة الفادحة، التى تتقطع قلوبهم عليها حسرات.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٨ جـ١٦ ص ٥٤.

(٢) البحر المحيط جـ٦ ص١٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتجارة الدنيا مادية دانية فارغة، تتعرض للبوار والخسران وكسبها مادى لا غناء فيه ولا طائل من ورائه، إذ لا تتحقق به متعة الروح والقلب ولا انشراح الصدر وطمأنينة النفس ولا هدوء البال وارتياح الخاطر، فسحقا له من كسب لا يجلب لهم السعادة الحقيقية لا فى دنياهم الفانية ولا فى أخراهم الباقية.

ولكن تجارة المؤمنين نوع مختلف ولون رفيع، إنها تجارة الأعمال الصالحة، التى لا تكسد، وأفعال الخيرات التى لا تبور، إنها التجارة التى حث عليها الرب العظيم فى قوله الكريم ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ سورة الصف آية ١٠، ١١.

وربحها هو الأجر الوافى الذي يتنامى بفضل الله، والثواب العميم الذى يتضاعف بفيض كرمه وجوده، فهو الغفور لعباده تقصيرهم، الشكور لهم بالرضا وحسن الجزاء.

وقوله تعالى ﴿**إن الذين يتلون كتاب الله...**﴾ هو استئناف لبيان جملة «إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور فى الآية السابقة، فالذين يتلون كتاب الله هم المراد بالعلماء في الجملة الكريمة، فبعد أن أثنى عليهم إجماليا فى «إنما يخشى الله من عباده العلماء» وأجمل حسن جزائهم بذكر صفة «غفور» فصل ذلك الثناء وذكرت آثاره النافعة، ولذلك ختمت هذه الآية بقوله :«إنه غفور شكور»[١].

والمؤمنون حق الإيمان يعرفون الله حق معرفته، ويعلمونه كنه العلم وقد قال ﷺ: «أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به»[٢]، وقد قيل إنه «من ازداد بالله علما ازداد منه خوفا».

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١١ جـ٢٢ ص ٣٢٦.

(٢) الكشاف جـ٣ ص ٣٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتلاوة القرآن الكريم ومدارسته هى الرتبة السامية من مراتب العلم والإيمان، والذين يتلون كتاب الله هم مؤمنون به حق الإيمان، لأنه لا يتلو الكتاب إلا من صدق به، واطمأن به قلبه، وانشرح له صدره وعنى بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار.

والمؤمنون العلماء العارفون يتلون القرآن آناء الليل وأطراف النهار لأنه النبع الذي منه ينهلون، والضوء الذى منه يستمدون أنوار العلم والإيمان، والتقوى والصلاح، والخوف والرجاء، وكل ما فيه صلاح الدنيا وسعادة الآخرة.

والقول الكريم ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ ينبض بتلك المعانى فنحن نلمح فى التعبير بالاسم الموصول إشارة دالة على سمة هؤلاء المؤمنين العلماء، وهى اشتهارهم بمضمون جملة الصلة، التى أفادت أنهم يداومون تلاوة القرآن، ويرتشفون رحيقه صباحهم ومساءهم وليلهم والنهار، حتى لقد صار ذلك منهم دأبا وديدنا كما أكد ذلك وزاد إيضاحه التعبير بالفعل المضارع «يتلون» الدال على التجدد.

وإنهم فى ذلك لتغمرهم مشاعر الإعظام والإجلال، والإكبار والتهيب إذ هم إنما يتلون «كتاب الله» فالإضافة إلى لفظ الجلالة أبرزت ما يستولى عليهم ساعات تلاوته من الاستشعار بالعظمة والهيبة، وإنهم ليتلون كتاب الله فيمتثلون ويستجيبون، ويطيعون ويتقربون إلى الله بأعظم الأعمال البدنية «إقامة الصلاة»، و«الإنفاق» الذى هو عمل عظيم من الأعمال المالية، والتعبير بالماضى فى إقامة الصلاة والإنفاق هو الذى أفاد معنى الطاعة والامتثال، كما أفاد معنى المداومة، إذ إن الامتثال للتكاليف يقتضى المداومة عليها، والحرص على أدائها خير أداء، كما شرعها الله وفرضها.

وقوله عز وعلا ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ فيه إدماج للامتنان وإيماء إلى أنه إنفاق شكر على نعم الله عليهم بالرزق، فهم إنما يعطون مما أعطاهم الله ويبذلون مما وهبهم، وفى الجملة الكريمة كذلك التفات من الغيبة فى ﴿إن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذين يتلون كتاب الله﴾ إلى التكلم فى ﴿مما رزقناهم﴾ ليناسب مقام الامتنان(١).

والإنفاق هو شغلهم الشاغل، ومقصدهم الذى لا يحيدون عنه، فهم ينفقون «سرا» من حيث لا يراهم إلا الله المنعم المتفضل، و«علانية» أمام الناس إذا لم يكن بد من ذلك، فلا تمنعهم مشاهدة الناس عن الإنفاق والبذل والعطاء، ومع هذا فإن الإنفاق «سرا» يتقدم على الإنفاق «علانية» لأنه يقطع من النفس البشرية شوائب الرياء الذى قد يتسرب إلى النفس، ويسرى فى حناياها دون أن تستطيع له دفعا، فيتملكها الزهو والخيلاء، حين ترمق عيون المعجبين من الناس هذا العمل النبيل الجليل.

وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله، هى التجارة التى لن تبور، وقد استعيرت «التجارة» لتلك الأعمال العظيمة من جهة أن ترتب الثواب على تلك الأعمال يشبه ترتب الربح على التجارة، فكأن المعنى يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا راجين أن تكون أعمالهم كالتجارة التى لا تبور ولا تخسر ولا تكسد، وفى التجارة جهد بدنى ومالى مبذول بقصد المرابحة والحصول على المزيد والحرص على التكثير والتنمية، ومن ثم فإن جهدهم البدنى المتمثل فى التلاوة والصلاة وجهدهم المالى المبذول فى الإنفاق والسخاء والعطاء، هو أشبه ما يكون بالأعمال التجارية، إذ هم يقصدون بها سلعة الله الغالية «الجنة» والله تعالى بفضله يوفيهم أجور أعمالهم، ويزيدهم من جوده وكرمه.

ونضيف هنا أن التجارة ليست تجارة المحاسبة والمقايضة ولكنها تجارة التوكل والرجاء «يرجون تجارة لن تبور»، فهم إنما يعملون على أمل ورجاء أن يحقق المولى رجاءهم ويجزل عطاءهم ويحسن مثوبتهم، والجملة الكريمة

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١١ جـ٢٢ ص ٣٠٦ بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«ليوفيهم أجورهم» تسوق البشارة بالثواب الوافى التام الذى لا نقيصة فيه ولا غبن، ثم تتسع دائرة التبشير فى قوله عز وجل ﴿ويزيدهم من فضله﴾ إذ هو تسجيل للتفضل بالزيادة على ما يستحقونه، وهو مضاعفه الحسنات(١).

ونجمل القول فى أن الرجاء هنا هو رجاء فى رب متفضل كريم، ورجاء فى تجارة لن تبور، وكيف تبور تجارة الأعمال الصالحة التى يوفيهم الله أجرها أعظم ما تكون ويزيدهم من فضله زيادات تتضاعف بها حسناتهم وتنشرح لها قلوبهم.

﴿إنه غفور شكور﴾ وهو تذييل للوعد بتوفية الأجور، والزيادة من فضل الله، وقد أفاد تحقق ذلك الوعد وتأكده لأن المتصف بالغفران والشكران سوف يتجاوز عن السيئات ويضاعف الحسنات.

و«الشكر مجاز عن الإثابة» (٢) ومضاعفة الحسنات على الأعمال، وقد تأكد بحرف التأكيد «إن الله غفور شكور» زيادة فى تحقيقه ولما فى التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها، فليهنأ هؤلاء بالا، وليطيبوا نفسا، وليقروا عينا بتجارتهم المضمونة الرابحة التى لا خسران فيها ولا خذلان.

﴿تحقق الرجاء فى اللقاء﴾

قال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾ سورة العنكبوت آية ٥.

والمؤمنون يحبون لقاء الله ويرجونه، وتتحرق قلوبهم إلى لقائه شوقاً، وان نفوسهم لتتعجل ذلك وتتطلع إليه، وإنهم ليأملون فى لقاء الله الفوز بالرحمة والرضوان، والظفر بالجنة والتنعم.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١ جـ٢٢ ص٣٠٧.

(٢) البحر المحيط جـ٧ ص ٣١٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والآية الكريمة تؤكد للمؤمنين مواتاة اللقاء فى حينه، وموافاة الأجل فى وقته فليطمئنوا نفسا وليقروا عينا، فإن أجل الله آت لا محالة ووقوع ما وعدهم به من كل ما تسعد به نفوسهم في الدنيا والآخرة متحقق لا مرية فيه.

فالذين يرجون لقاء الله هم المؤمنون خاصة، ورجاء لقاء الله هو ظن وقوع الحضور لحساب الله ولقائه يوم الحشر، يوم يتلقى الناس خطاب الله، المتعلق لهم أو عليهم مباشرة بدون واسطة(١).

والمؤمنون يرجون لقاء الله رجاء التوقع ورجاء التطلع، فهم يتوقعونه تصديقا وإقرارا، ويتطلعون إليه حبا وشوقا واستبشارا.

وأجل الله إذا كان هو الوقت الذى عينه فى علمه للبعث والحساب يكون هو نفسه لقاء الله، ولقاء الله إنما يتمناه المؤمنون ويرجونه ولا يعلمون أجله، فأجله المحدد ووقته الموقوت إنما هو عند الله لا يعلمه سواه.

ولعل هذا هو سر العدول عن الإضمار إلى الإظهار «ولما فى إضافة أجل إلى اسم الجلالة من الإيماء إلى أنه لا يخلف»(٢).

وقد ذكرت «كان» فى فعل الشرط للدلالة على تمكن الرجاء ورسوخه لدى القلوب المؤمنة، كما تأكدت جملة الجزاء بحرف التأكيد لحث الراجين على الاستعداد للأجل الذى لا يتخلف، والموعد الذى لا يتأخر.

ويجوز أن يكون المراد «بأجل الله» الأجل الذى عينه لنصر المؤمنين فيكون تثبيتا للرسول والمؤمنين، ويكون المعنى إن كنتم مؤمنين بالبعث إيمانا ينبعث من تصديق وعد الله فإن التصديق بمجيء النصر أجدر لأنه وعدكم به.

ولعل هذا المعنى هو الأنسب للتذييل بالقول الجليل ﴿وهو السميع العليم﴾ إذ يكون المعنى أنه سمع دعاءهم بتعجيل النصر وأنه علم ما فى نفوسهم من التطلع إلى الغلبة والظفر به.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٠ ج٢٠ ص ٢٠٨.

(٢) نفسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿دعوة شعيب قومه إلى عبادة الله ورجاء اليوم الآخر﴾

قال تعالى: **﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾**

سورة العنكبوت آية ٣٦

نبى الله شعيب يدعو قومه إلى العقيدة الصحيحة، عقيدة السماء، دعوة جميع الرسل والأنبياء **﴿اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾**.

وعبادة الله الواحد هى أساس الدين ومحور الإيمان ومنبع التقوى والصلاح والتحلى بكل خير والتنائى عن كل شر.

ورجاء اليوم الآخر- الذى يعنى توقعه وترقبه واعتقاد مجيئه والتصديق بما فيه من حساب وثواب وعقاب- يهدى إلى التجافى عن دار الغرور والمسارعة إلى أعمال الخير والبر التى تتحقق بها النجاة من عذاب ذلك اليوم العظيم.

وقد كان قوم شعيب عليه السلام يطففون الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم، إذ هم قد ماتت ضمائرهم حين لم يرجوا البعث ولم يخشوا العقاب، فهم لا يرجون إلا الحياة الدنيا، ينتهبون لأجلها ما أمكنهم انتهابه، ويأكلون أموال الناس بغير حق فى سبيل التكاثر فيها.

ولو أنهم آمنوا بالله ورجوا اليوم الآخر لتغيرت خصالهم الذميمة، ولتبدلت أغراضهم الفاجرة، ولترفعوا عن التطفيف والبخس والفساد، ولتطلعت نفوسهم إلى الهدف الأسمى والمقصد الأعظم جنة عرضها السموات والأرض.

وتقديم الجار والمجرور فى القول الكريم **﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾** ليتأتى الإيجاز فى وصف شعيب بأنه أخوهم، والفاء فى قوله عز وعلا **﴿فقال يا قوم اعبدوا الله﴾** عطف على الفعل المقدر، أى أرسلناه فعقب إرساله بأن قال يا قوم اعبدو الله(١).

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٠ جـ٢٠ ص ٢٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿وارجوا اليوم الآخر﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة فيه، فأقيم المسبب مقام السبب، أو أمروا بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوغه من الإيمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط، وقيل هو من الرجاء بمعنى الخوف[١].

فالذين يؤمنون بالله ويرجون اليوم الآخر، لا يمكن أن يكونوا علي هذا الوصف الذى كان عليه أهل مدين قوم شعيب عليه السلام ينقصون المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ويعثون فى الأرض بالفساد فتلك الأفعال الوبيلة إنما هى ناجمة عن كفرهم بالله وجحدهم اليوم الآخر، ولو ظن هؤلاء أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين، لزجرهم ذلك عن التطفيف، ولردعهم عن الفساد، ولتحلوا بكل الفضائل التى تشرق بها عقيدة الإيمان، وعلي رأسها أمانة المكيال وعدالة الميزان والقسط فى توفية الناس حقوقهم والخشية كل الخشية من البخس والرهبة كل الرهبة من التطفيف.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ والعثو هو الإفساد فيكون المعنى ولا تفسدوا متعمدين الإفساد قاصدين إلى تحقيقه[٢].

﴿«الذين لا يرجون لقاءنا» عنوان المكذبين﴾

قال تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ سورة يونس آية ٧، ٨.

«الإيمان باليوم الآخر يعد الدعامة الأولى فى بناء الدين كله، وإذا انهار هذا الأساس انهار الدين، فلم يعد له من بقاء، فعقيدة المرء فى الحساب وأنه

---

(١) الكشاف جـ٣ ص٢٠٥.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٤ ص ١٩١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجزى بعمله على الخير والشر، هى التى تدفع إلى التفكير السليم كى يصل إلى العقيدة الصحيحة التى يؤمن بها وإلى العمل الصالح، واجتناب مساوىء الأمور كى يجزى على الخير بالخير ويتقى أليم العذاب»(١).

والذين لا يؤمنون بالآخرة موسومون بالغفلة والاستكبار والقلوب المنكرة، كما فى قوله تعالى: ﴿**إلهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون**﴾ سورة النحل آية ٢٢.

القلوب منكرة فلا تقر ولا تتدبر، والعقول رافضة آبية فلا تتحقق ولا تتفكر، يمرون بآيات السموات والأرض- على كثرتها وروعتها- معرضين، فلا يدركون ما فى الكون من الحكمة والإحكام ولا يدرون أنما الحياة الدنيا وما تموج به من أحوال الخير والشر، ثم ما يصيبها من الاضمحلال والزوال لا تصلح أن تكن غاية منشودة فى ذاتها، فكيف يرتضيها الخالق للمخلوقين، إنه لابد من حياة أخرى هى أبقى وأنقى يجزى فيها المحسن على إحسانه والمسىء على إساءته.

وقد جعل عنوان «الذين لا يرجون لقاءنا» علامة عليهم، فقد تكرر وقوعه فى القرآن فهم لا يظنون ولا يتوقعون لقاء الله والمصير إليه، ومن ثم فهم لا يطمعون في الثواب ولا يخشون العقاب(٢)، والتعبير عنهم بالموصول دون غيره للإيماء إلى أن الصلة علة فى حصول الخبر، فهم قد استحقوا النار مأوى يتلظى وملجأ يتسعر لأنهم لم يرجوا لقاء الله، بل رضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا إليها.

والرضا بالدنيا والسكون إليها يتبدى سافرا فى عشقهم الشديد لها، والابتهاج العظيم بها، والاغترار ببهارجها والانخداع بزخارفها، وهى قد

---

(١) من بلاغة القرآن د. أحمد بدوى ص ٢٨٩.

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٦ جـ٢١ ص ٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شغفتهم بفضتها وذهبها فهاموا بها وأحبوا حبا جما واحتفوا بها أشد الاحتفاء.

«والبهجة بالحياة الدنيا والرضا بها يكون مقدار التوغل فيها بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة»(١).

فالتعبير «بالرضا» يوحى بمعنى الإيثار والتفضيل، وهم حين يؤثرونها لا يعملون إلا لها ولا ينصبون إلا من أجلها، ولا يكلفون إلا بها، «وقد قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها»(٢).

«والاطمئنان» بالدنيا يوحى بسكون النفوس إليها، فلا تتطلع إلى دار أخرى سواها لأن الذى يطمئن إلى الشىء تسكن نفسه عنده فلا تتطلع إلى غيره، ولا تتشاغل إلا به ولا ترغب ولا ترهب ولا تجزع ولا تفزع إلا للهم فى أسبابه والسعى فى دواعيه.

والرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها تكملة لمعنى الصلة فى «لا يرجون لقاءنا» لذا لم يتكرر الموصول معهما، فالذين لا يرجون الآخرة هم الذين رضوا بالدنيا واطمأنوا بها، والمكذبون باليوم الآخر هم الذين يؤثرون القليل الفانى على الكثير الباقى، ويسكنون إلى الدنيا سكون من لا يزعج عنها، فبنوا شديداً وأملوا بعيداً(٣).

﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ هم أنفسهم الذين لا يرجون لقاء الله في الآخره وإنما أعيد الموصول للاهتمام والإيماء إلى أنها «الغفلة» وحدها كافية في استحقاق ما سيذكر بعدها من الخبر فى قوله تعالى ﴿ أولئك مأواهم النار﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٦ جـ٢١ ص ٩٩.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٤٠٧.

(٣) الكشاف جـ٢ ص٢٢٦.

(٤) التحرير والتنوير مجلد ٦ جـ٢١ ص ١٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالغفلة بمعناها الذى سيتضح بعد، هى الضالعة بإعراضهم عن لقاء الله، والرضا عن الدنيا والاطمئنان إليها ثم ما يتبع ذلك من السدور في الغواية والإغواء والضلال والإضلال.

ذلك لأن «الغفلة» الموسوم بها هؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله فى الآخرة ليست هي الغفلة العارضة التى قد تنتاب الإنسان فى بعض الأحيان، ولكنها «غفلة» تتلبس بمعانى الإعراض والعناد والمكابرة والإصرار، ينطق بذلك السياق السابق والنسق اللاحق فهي «غفلة» منكرى البعث، الخالدين فى النار.

ولعل هذا هو سر التعبير بالجملة الاسمية (هم عن آياتنا غافلون) التى وقعت صلة للاسم الموصول، كيما تدل على الثبوت والدوام «فالغفلة» راسخة لا تتزحزح دائمة لا تتحول.

وفى تقديم الجار والمجرور «عن آياتنا» ما يفيد أن «الغفلة» إنما هى عن «آياتنا» دون غيرها من الأمور الدنيوية، فهم فيها يقظة فطناء على حد قول الشاعر:

نطن لكل مصيبة فى ماله ... وإذا أصيب بدينة لم يفطن

فالجملة الكريمة ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ بسياقها وبمجموع مافيها من لطائف النظم، قد أصابت ما ترمى إليه من وصم هؤلاء الغافلين، بتعمد الغفلة والقصد والدأب ورسوخ الأقدام حتى كأنها صارت سجية مركوزة في طباعهم السقيمة.

ثم يجيء العقاب الذى يزلزل الكيان ويصخ الآذان ﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ جزاء وفاقا لتكذيبهم بالثواب والعقاب وبما كانوا يكسبون.

وكلمة «مأواهم» المضافة إلى ضمير الغافلين، وبما تدل عليه معانيها التى تدور حول- اللجوء والسكن والنزول- تطلق الخيال وتستثيره ليتصور ويتملى حال قوم مسكنهم النازلون به المستقرون فيه هو النار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«واسم الإشارة أولئك لزيادة إحضار صفاتهم فى أذهان السامعين، ولما يؤذن به مجيء الإشارة بمبتدأ عقب أوصاف من التنبيه على أن المشار إليه جدير بالخبر من أجل تلك الأوصاف، والباء فى «بما كانوا يكسبون» سببية، وما الموصولة للإيماء إلى علة الحكم، وأن مكسوبهم سبب فى مصيرهم إلى النار فأفاد تأكيد السببية المفادة بالباء، والإتيان بكان للدلالة على أن هذا المكسوب ديدنهم، والإتيان بالمضارع للدلالة على التكرير، فيكون ديدنهم تكرير ذلك الذى كسبوه»[١].

فانظر إلى النظم الشريف كيف أبان عن المعانى فى أحسن بيان وفى أخصر عبارة وأحكم بنيان.

فاستهل بالتوكيد التى تترسخ به المعانى في الأعماق وتتعظم فى القلوب، ثم جاء الاسم الموصول حتى تفصح صلته عن الجرم الشائن الذى أعمى أقواما عن لقاء الله، وطمس بصائرهم عن التصديق بالبعث والجزاء، الأمر الذى جعلهم يرتضون الدنيا عوضا عن الآخرة، ويؤثرون الحقير الخسيس على الجليل النفيس، فكانت النار هى الجزاء العادل.

ولنأذن للخواطر أن تتشوف آفاق الخيال، علها تلمح ومضة سانحة، نلمحها فى التناسب بين جنايات المكذبين وجناهم، حين ارتضوا ما لا يرتضى، واطمأنوا إلى ما لايطمأن إليه وهم من قبل ومن بعد لم يتوجهوا إلى رحمن الدنيا والآخرة برجاء، فهم اليوم يأوون إلى غير مأوى، ويلوذون إلى غير ملاذ، والنار التى لا تؤوى ولا تكن، عليهم أن يرتضوها داراً وأن يطمئنوا بها منزلاً ومآبا، جزاء بما كانوا يكسبون، حين ارتضوا الدنيا، واطمأنوا إلى زيفها وبهارجها.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٦ جـ٢١ ص ١٠٠.

وقال تعالى: ﴿**ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون**﴾ سورة يونس آية ١١.

الآية الكريمة تشير إلى رعونة منكرى البعث وحماقتهم التى أفضت بهم إلى أن يتعجلوا العذاب ليحل بهم، ويطلبوا الشر ويرغبوا في نزوله عليهم، كما فى قوله تعالى ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم**﴾ سورة الزنفال آية ٣٢.

وهذا لون غريب من التحدى، لا يكون من عاقل أريب، وإنما يندفع إليه المغرور الطائش بفهمه السقيم فى نزق وسفه.

هذا السفه المزرى الشائن الذى جعلهم «يحسبون تصرفات الله كتصرفات الناس، من الاندفاع إلى الانتقام عند الغضب اندفاعا شديدا ويحسبون الرسل مبعوثين لإظهار الخوارق ونكاية المعارضين لهم»(١).

والبيان المبين يكشف عن طبيعة «التعجل» التى يتسم بها الناس عامة، وهؤلاء المعاندون خاصة.

وإذا كان تعجيل «الخير» أمرا مرغوبا فيه مأمون العواقب، محبوبا مبهجا، فإن تعجيل «الشر» فيه البلاء المبين والويل والثبور.

والله عز وجل لطيف بعباده، فلا يعجل للناس الشر استعجالهم بالخير، فهو الذى يقدر ذلك بحكمته، التى اقتضت الإمهال إلى آجال محدودة وآماد معدودة، فلن يعجل لهم الشر، ولكن يتركهم في مدة الإمهال ويفيض عليهم النعمة، مع طغيانهم الذى يعمهون فيه ويتحيرون.

«وجملة- ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير... - معطوفة على جملة- إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا....- فحيث ذكر

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٦ ج٢١ ص ١٠٥.

عذابهم الآيلون له، فى قوله الحكيم: ﴿أولئك مأواهم النار﴾ ناسب أن يبين سبب تأخير ذلك العذاب عنهم فى الدنيا، لتنكشف شبهة غرورهم، والقرينة على اتصال هذه بجملة «إن الذين لا يرجون لقاءنا» قوله فى هذه الآية: «فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون «فبين أن الرفق جعله الله مستمراً لأنه أقام عليه نظام العالم، وأنه لم يقدر توازى الشر فى العالم بالخير، لطفا ورفقا وتلك منة جليلة»(١).

وأداة الشرط «لو» التى تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، هى التى أظهرت معنى النفى والمنع وعدم حصول ذلك المطلب الغريب، فإنه لن يحدث شىء من ذلك، لا التعجيل والإهلاك الفورى الخاطف، ولا إنهاء الآجال قبل أوانها.

أما الاستعجال بالخير فإن الأمل فيه كبير لأن الخيرات المفاضة المتفضل بها على العباد جليلة، ووسائل الإمداد بها تتنوع وتتعدد، إذ هى قوام العيشة والحياة المقدرة من لدن الكريم الحكيم.

وتلك هى نكتة وضع الاستعجال موضع التعجل، لأن الاستعجال يفيد المبالغة فى التعجيل، تلك المبالغة المستفادة من استعمال صيغة الاستفعال لغير الطلب.

«وإذا تسور القارىء الفطن بفكره مراقى البيان، علم أن وراء الجنوح إلى هذا المصدر بدلا عن المصدر الملائم للفعل سرا، إذ وضع الاستعجال موضع التعجل، إيذانا وإشعارا بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبهم»(٢).

ومجمل ما يفهم من الجملة الكريمة «ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم» أن إلحاق الشر والعذاب- بالمتعجلين من الناس جميعا والمشركين بالأولى- ممتنع، لأن وصول الآجال وانقضاءها قبل

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٦ جـ٢١ ص ١٠٥ بتصرف يسير.

(٢) إعراب القرآن وبيانه المجلد الثالث ص٣٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يحين حينها- ممتنع، وهذا الامتناع المفهوم فى شرط «لو» وجوابها، يؤخذ منه انتفاء ذلك ويعطى معنى لن يكون ولن يحدث تعجيل العذاب ولا إنهاء الآجال فنحن نذر الذين لا يرجون لقاءنا ونمهلهم.

وإلى ذلك يشير الطاهر بن عاشور بقوله :

«وجملة نذر الذين لا يرجون لقاءنا- مفرعة على جملة «لو» وجوابها المفيدة انتفاء أن يعجل بانتفاء لازمه وهو بلوغ أجلهم إليهم، فإذا انتفى التعجيل فنحن نذر الذين لا يرجون لقاءنا، أى نتركهم فى مدة تأخير العذاب عنهم، متلبسين بطغيانهم، أى فرط تكبرهم وتعاظمهم، فنذر ليس معطوفا على كلام مقدر وإنما التقدير تقدير معنى لا تقدير إعراب، أى فنترك المنكرين للبعث في ضلالهم مقدار آجالهم»(١).

وكلمة «فى طغيانهم» والمراد بها الكفرة، تصم هؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله بالتكبر والتجبر، والعتو والعناد.

وكلمة «يعمهون» تسمهم بالعمى والضلال، والتحير والتردد أما الوصمة الكبرى والشنعة العظمى(٢)، والفرية النكراء فهى إنكار البعث فلذلك دمغوا به فى التعبير عنهم باسم الموصول الذى صار كأنه علم يعرفون به أو علامة يعلمون بها، فهم الذين لا يرجون لقاء الله ولا يتوقعون البعث والحساب.

ونخلص - وبعد أن أذن لنا- فى التعرف على شيء من أسرار الألفاظ والعبارات، إلى أن المعانى المرادة قد اكتست أدق نظم، وأوفى لفظ وأخصر تعبير وألطف نسق.

وقال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٦ ج١١ ص١٠٧.

(٢) الشناعة: الفظاعة والاسم الشنعة القاموس المحيط ج٣ ص٤٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾ سورة يونس آية ١٥.

والذين لا يرجون لقاء الله يلبسون هنا قناعا مخاتلا، فيتقدمون بمطلب عجيب، يقترحون فيه تبديل القرآن العظيم أو الإتيان بغيره وهو اقتراح تفوح منه رائحة التكذيب والإنكار كما ينم عن بلادة الأحاسيس وخبث السرائر، إذ يبدو ظاهره الإطماع فى إيمانهم، ولكنه يخفى فى باطنه الحبالة الماكرة والشرك الخادع «فإنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحا لافترائه على الله»(١).

ونحن إذا تأملنا قول العلى القدير **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾**(٢). لرأينا إلي أى مدى وصل هؤلاء الموصومون بأنهم لا يرجون لقاء الله فى قدح عقولهم وإعمال أفكارهم، حيث لم يدخروا وسعا فى تلمس المأزق الحرج والثغرة القاتلة.

ويأتيهم الرد صارما حتى يستأصل الأوهام الخاوية ويجتث هذا الأفن من جذوره «قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم».

عبارات قوية قاطعة متلاحقة، لا تسمح بنبسة من مواربة أو مداراة أو مجاراة، إنه لا يمكن أن أفعل شيئا مما تقترحون، فأنا إنما أتلقى وحيا علويا ربانياً يتنزه عن أن تناله يد البشر بتغيير أو تبديل، وما أنا إلا رسول أتبع الوحى وأبلغه فلا أبتدع ولا أخترع، وإلا عرضت نفسى للعذاب الشديد يوم الفزع الأكبر.

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٢٩٩.

(٢) سورة الحاقة آية ٤٤ إلى ٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقوله الكريم : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا...﴾ عطف على جملة «ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير» لأنه ناشيء عن قولهم ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء... الخ﴾ الأنفال آية ٣٢، فهى طرق متعددة يسلكها الذين لا يرجون لقاء الله، فطلب تعجيل العذاب الآنف أسلوب من أساليبهم في التكذيب، واقتراح الإتيان بقرآن آخر أو التبديل هو أسلوب آخر من أساليب تكذيبهم النبى الكريم.

وقد تقدم الظرف ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ على عامله «قال» للاهتمام بذكر ذلك الوقت الذى تتلى فيه الآيات عليهم، فيقولون فيه هذا القول تعجيبا من كلامهم ووهن أحلامهم ووصف الآيات «بالبينات» لزيادة التعجيب من طلبهم التبديل، حيث لا سبيل إلى خير منه.

والمضارع فى «تتلى» لايمكن أن يدل على الحال أو الاستقبال لأن الظرف «إذا» المضاف إلى جملة المضارع فى «وإذا تتلى عليهم آياتنا» معمول للفعل الماضى «قال الذين لا يرجون لقاءنا» ولا يتصور فى الماضى العامل فى الظرف، أن يكون واقعا فى الحال أو الاستقبال فتعين أن يكون المضارع «تتلى» لمجرد الدلالة على التكرر والتجدد.

وما صدق «الذين» فى «قال الذين لا يرجون لقاءنا» هو ما صدق الضمير فى «وإذا تتلى عليهم آياتنا» فالمقام للضمير فكان يقال وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا، ولكن وضع الاسم الظاهر «اسم الموصول» موضع الضمير لأن «الذين لايرجون لقاءنا» اشتهر به المشركون، فصارت الصلة كالعلم عليهم، إذ ليس بين الصلة والخبر هنا علاقة تعليل، فلا تكون الصلة- هنا- للإيماء إلى وجه بناء الخبر[١].

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٦ جـ٢١ ص١١٦، ١١٧ بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكتب التفسير تشير إلى أن الغيرية والتبديل المقترح هو أن يأتى بكتاب آخر غير هذا القرآن ليس فيه ما يغيظهم من ذم عبادة الأوثان والوعيد بعذاب اليوم الآخر، أو أن يبدله بأن يجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ويسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها (١).

وفى البحر المحيط «والمعنى ساهلنا، واجعل الكلام باختيارنا وأحل ما حرمته وحرم ما أحللته، ليكون أمرنا واحدا وكلمتنا متصلة» (٢).

وفى إيجاز شديد أمر الصادق المصدوق بأن يجيب عن التبديل «قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى» لأن الإتيان بقرآن آخر هو أمر غير مقدور عليه أصلا، فهو أمر فوق طاقة البشر، أما تبديل بعض الكلمات والعبارات والمعانى والأغراض، فإنه أمر قد تسول لهم أفهامهم السقيمة إمكانه.

والجملة الكريمة- ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى- تبدأ بنفى الكون الدال على الاستحالة ثم تفيض بمعانى الشفافية والنقاء والصدق والصفاء، والتبرى من الافتراء، ما يكون «لى» أنا رسول الله الصادق الأمين أن أبدله من تلقاء نفسى «وتلقاء» مصدر علي وزن تفعال للمبالغة، وتستعمل ظرفاً فتطلق على جهة التلاقى ثم تطلق على الجهة والمكان مطلقا (٣).

وتنفصل جملة «إن أتبع إلا ما يوحى إلى» عما قبلها لأنها تعليل لها والقصر بطريق «النفى والاستثناء» تقوية وتوكيد يناسب المقام ويقوى المعنى المقصود لدرء شبهة التغيير أو التبديل» فإنما هو عبد مأمور، ورسول مبلغ» (٤).

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٢٨٨.

(٢) جـ٥ ص١٣١.

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٦ جـ٢١ ص١١٨.

(٤) ابن كثير جـ٢ ص٤١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقصر هنا إضافى، يتعلق فيه الاتباع على ما يوحى إلى الرسول، دون أن يكون المتبع شيئا مخترعا، يجوز له فيه التغيير أو التبديل، بدلالة وقوعه جوابا لرد اقتراحهم «فمن رام أن يحتج بالقصر على عدم جواز الاجتهاد للنبى فقد خرج بالكلام عن مهيعه»(١).

والصادق الأمين لا يغير ولا يبدل، بل يلتزم بالوحى ويتبعه فلا يتعداه ولا يتجاوزه فالاتباع هنا مجاز فى عدم التصرف مأخوذ من عدم تجاوز الاقتفاء في المشى.

ومع كون الرسول الأعظم مجبولا على الصدق مطبوعا على الأمانة فإنه يذكر هؤلاء المأفونين ويلفتهم إلى شىء رهيب هو العذاب الأليم المعد للعصاة، فكيف يعصى الله بتلك الفظائع العظمى «الافتراء عليه بتغيير قرآنه، وتبديل كلماته» وهى جريرة من ورائها عذاب يوم عظيم.

وقال تعالى: **﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجوراً. وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾** سورة الفرقان آية ٢١، ٢٢، ٢٣.

إن **«الذين لا يرجون لقاءنا»** قد صار هو العنوان الذى يعرف به المكذبون المعاندون لأنهم قد اتخذوا من إنكار البعث الذريعة الكبرى لتكذيب الرسل، إنها الفرية العظمى والفتنة النكراء، بل هى الركيزة التى ينطلقون منها إلى التطاول والتجاسر والإفك والافتراء، ذلك لأنهم لا يرجون لقاء الله ولا يتوقعونه ولا يرهبونه ومن ثم فإن قلوبهم لا تستشعر الهيبة والجلال والرهبة والعظمة، فهم عابثون هازلون يتطاولون على مقام النبوة بالتكذيب، بل إنهم

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٦ جـ٢١ ص١١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكما قال الله **﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** الزمر آية ٦٧، وها هم سادرون فى غيهم ولا يزالون يقترحون الاقتراحات الفاجرة التى لا تصدر إلا عن القلوب المنكرة التى لا تؤمن بالآخرة. وتأتى اقتراحاتهم الغريبة العجيبة **«لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا»** إنهم يطلبون أن تنزل عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمداً هو رسول الله حتى يؤمنوا به، أو أن يروا الله فيأمرهم بتصديق النبى محمد واتباعه، إن الأفن والهراء ليفوح من منطقهم السقيم ومقترحهم الشائن.

والآيات الكريمة لا تجيب طلبهم الآفن ولا تعيره أهمية، ولكن تلفت النظر إلي الأسرار الكمينة وتنفذ إلى الأسباب الدفينة، إنهم لم يجسروا علي هذا القول الشنيع إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأبعد الآماد في العتو والطغيان، وناهيك بالاستكبار الفارغ والاستعظام والتضخم الأجوف من شيمة رذيلة وبيلة تطمس الأبصار والبصائر فلا تستقيم على صراط ولاتهتدى إلى حق.

ألا فليعلم أولئك العتاة المستكبرون أن مطلبهم هذا سوف يتحقق، ويوم يتحقق لن يكون يوم خير عليهم، بل هو الشر المستطير يحدق بهم إنه يوم «يقال لهم فيه» لا بشرى يومئذ للمجرمين، ويقولون حجرا محجورا» والملائكة يقولون لهم ذلك عند الاحتضار أو في عرصات القيامة يوم يضربون وجوههم وأدبارهم.

و**«الذين لا يرجون لقاءنا»** هم الذين لا يخافون لقاء الله فى الدار الآخرة، فالرجاء إذا كان معه جحد يؤدى معنى الخوف كقوله تعالى **﴿مالكم لا ترجون لله وقارا﴾** أى لا تخافون لله عظمة، أما الرجاء فى الله فإنه يؤدى معنى ترقب الخير والأمل فى العفو والمثوبة والأفضل أن يحمل الرجاء هنا على

---

(١) المرجع السابق بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشهور فيكون معنى «لا يرجون لقاءنا» لا يأملون لقاءنا بالخير، وثوابنا على الطاعة لتكذيبهم وكفرهم.

ومعلوم أن رجاء الثواب يلزمه الخوف من العقاب، فهما أخوان لا ينفكان ومن كان مكذبا بالبعث فلا رجاء له فى ثواب ولا خوف عنده من عقاب[١].

«ولولا» تحضيض مستعمل فى التعجيز والاستحالة، إذ هو حض على إنزال الملائكة أو رؤية الله جهرة. وقوله تعالى: ﴿**لقد استكبروا فى أنفسهم**﴾ استئناف في منزلة الجواب وقد تأكد بلام القسم لإفادة معنى التعجب، والسين والتاء فى «استكبروا» أفادت المبالغة فى التكبر، و«فى» للظرفية المجازية، وتكون «أنفسهم» مشبهة بالظروف فى تمكن المظروف منها، أى أن الاستكبار متمكن منهم[٢].

وفى الظلال قوله «لقد استكبروا...» يكشف عن منبع التطاول وهو تضخم الشعور بالنفس، فلم يحسوا إلا بأنفسهم وقد كبرت فى أعينهم وتضخمت وعظمت[٣].

وقوله «وعتوا عتوا كبيرا» أى تجاوزوا الحد فى الظلم وتجبروا وكفروا أشد الكفر وأفحشوا، فقد وصف العتو بأنه «عتوا كبيرا» مبالغة فى إفراطه.

وفى فحوى هذه الأفعال دليل على التعجب من غير لفظ تعجيب، ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم، وما أكثر عتوهم، فهذه الجملة فى حسن استيفائها غاية فى أسلوبها[٤].

---

(١) ينظر البحر المحيط جـ٦ ص٤٩١.

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٩ جـ١٩ ص٥ بتصرف.

(٣) فى ظلال القرآن جـ٥ ص ٢٥٥٧.

(٤) ينظر الكشاف جـ٣ ص٨٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ أى أنهم سوف يمنعون البشرى والخير يوم يرون الملائكة، بل إنهم سينالهم الحزن ويحل بهم الشر، فانتفاء البشرى هنا مستعمل فى إثبات ضده وهو الحزن.

﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ حجرا ذكره سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة، المنصوبة بأفعال متروك إظهارها، نحو معاذ الله وعمرك الله كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور، أو هجوم نازلة، أو نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة من حجره إذا منعه.

ومحجوراً لتأكيد معنى الحجر والمنع، كما فى موت مائت وشعر شاعر.

«وقدمنا» عمدنا وقصدنا، وليس هناك قدوم ولا ما يشبه القدوم ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ماتحت أيديهم، فأفسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثراً ولا عثيراً(١).

وفى النكت للرماني «قدمنا هنا عمدنا وقدمنا أبلغ منه، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه من إمهاله لهم، كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم(٢).

﴿فجعلناه هباء منثورا﴾ والهباء ذرات دقيقة لا ترى إلا فى أشعة الشمس المنحصرة فى كوة ونحوها تلوح سابحة فى الهواء وهى أدق من الغبار، والمنثور غير المنتظم وهو وصف كاشف لأن الهباء لا يكون إلا منثوراً، فذكر الوصف للإشارة إلى ما فى الهباء من الحقارة والتفرق(٣).

---

(١) الكشاف جـ٣ ص٨٨.

(٢) النكت ص ٨٦.

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٩ جـ١٩ ص ٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿لا اعتبار مع إنكار البعث والنشور﴾

قال تعالى: ﴿ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ الفرقان آية ٤٠.

قلوب المؤمنين رقيقة رهيفة تخشع وتفزع وتتعظ وتعتبر وتتفطن للآيات وتنفذ إلى العبر.

والمؤمنون بالله واليوم الآخر ينظرون بالأبصار والبصائر، فتقشعر منهم الجلود والقلوب خوفا من حلول النقم فى الدنيا، وأفئدتهم ترجف هلعا من عذاب اليوم الآخر، ذلك لأن القلوب المؤمنة هى القلوب المهتدية الراجية ثواب الله الخاشية عقابه.

أما الذين لا يرجون نشوراً ولا يخشون حساباً، فقلوبهم فظة غليظة غافية غافلة معرضة عن الآيات والعبر والعظات، فهم يمرون بها فلا يعتبرون ولا يرتدعون ولا يلقون لها بالا، لأن الاعتبار والاتعاظ إنما ينشأ عن المراقبة والمحاسبة، ورجاء الثواب ومخافة العقاب، وهؤلاء قد تقطعت بهم السبل إلى ذلك.

وقوله عز وعلا ﴿ولقد أتوا على القرية﴾ يعنى أن قريشا يمرون على قرية «سدوم» من قرى قوم لوط، فالإتيان إلى القرية هنا معناه المرور على القرية في تجارتهم التى شغلتهم صيفهم وشتاءهم ولذلك عدى الفعل «أتوا» بـ«على» لتضمنه معنى «مروا» والمرور يتعلق بالسكان، والمجيء يتعلق بالمكان مثل جئنا خراسان فالتعبير «بالإتيان» أى المجيء قد تضمن معنى «المرور» لأنه يشبهه، فضلا عن أن المجيء والإتيان إلى القرية هو الذى يذكر بمصير أهلها، فكأن مجيئهم إياها مرور بأهلها (١).

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٩ جـ١٩ ص٢٩ بتصرف.

فلعل التعبير «بالإتيان على القرية» دون المرور عليها «لما ينطوى عليه» الإتيان من معنى «المرور» المدلول عليه بحرف التعدية «على» فضلا عن قوة كلمة «أتوا» فى أداء معنى المجىء إلى المكان والإشراف على القرية الممطورة مطر السوء وأهلها، فلم يكن مرورا عجلا خاطفا، وإنما كان إتيانا ومجيئا يعطى الفرصة المواتية للتأمل والاعتبار، مما يزداد به معنى العتو والإعراض والتبلد والغباء المجبولة عليه طباعهم.

ولقد تأكد الإتيان على القرية بلام القسم «ولقد أتوا» فأفاد معنى التعجب من عدم اعتبار غلاظ الأكباد هؤلاء، الذين مروا على قرية حل عليها غضب الجبار لما عصته وتمادت في العصيان، وعاندت رسوله فلجت في العناد (١).

فالعجب عجيب من أولئك الذين يرون القرية المشئومة ويطلعون على مصائر أهلها ثم ينقلبون إلى قراهم وادعين فيعيشون القصة نفسها ويكررون الفعال ذاتها.

إن القرية التى أتوا عليها هى القرية «التى أمطرت مطر السوء» فهى موسومة بذلك موصومة معلمة به مشتهرة، وقريش وغيرهم يعلمون ذلك تمام المعرفة فالموصول «التى» وصلته «أمطرت مطر السوء» لا ينصرف إلا إلى تلك القرية المغضوب عليها.

والعذاب الذى حل بالقرية أعنى «أهل القرية» هو حجارة تنقض عليهم من فوقهم، والمعبر عنها على سبيل التشبيه بقوله عز وعلا ﴿**أمطرت مطر السوء**﴾ فالحجارة فى انهمارها وانهمالها وغزارتها وتتابعها كانت أشبه ما تكون بأمطار غزيرة هامية منهمرة هادرة.

---

(١) المرجع نفسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم تكن تلك الأمطار على غرار ما اعتاده الناس وما هو معهود لهم من كونها رحمة تفيض بالماء والخير والبركة والنماء، وانما كان «مطر السوء»[١] والضر والعذاب والثبور والويل والنكال.

وهذا الويل والنكال الماثل أمام أعينهم والذى تقشعر له الأبدان وتختلج القلوب قد حل بقوم عصوا رسولهم وكذبوه فكان عليهم أن يحذروا على أنفسهم من أن يحل عليهم عذاب مثله إذ الجريرة واحدة والجرم هو نفسه، إنه الكفر والعناد والتمرد والعتو والعصيان، فكان عليهم أن يعتبروا ويرتدعوا وينزجروا ولكنهم لم يفعلوا.

والجملة الكريمة «**أفلم يكونوا يرونها**» تنطوى على تلك المعانى الآنفة، وتعلن عنها فى أسلوب الاستفهام الذى يوحى بمعانى التعجب والإنكار من حالتهم تلك إذ إن معناه، ألم يكونوا ينظرون إلي القرية فلم يكونوا يرونها ليعتبروا بمصائر من قبلهم، وما جر عليهم إمعانهم في الغواية وركوب متن الشطط من عقوبة[٢].

والرؤية المنفية فى الجملة الكريمة «**أفلم يكونوا يرونها**» هى رؤية الاعتبار والاتعاظ والتأمل، أما الروية البصرية فهى ثابتة متحققة، لأنهم قد أتوا على القرية ومروا بأهلها ورأوا بأم أعينهم ما حاق بالقرية وأهلها من البلاء ولكنهم لم يعتبروا بهم بل صنعوا صنيعهم، ونهجوا نهجهم فى تكذيب الرسول ومعاندته.

وهنا يأتى الإضراب الانتقالى الذى أوحى به التعبير بلفظة «بل» ليميط اللثام عن السرائر ويكشف الستار عن الخبايا، وينقل فى لمحة لافتة خاطفة من

---

(١) السوء هو المصدر ومعناه الضر والعذاب، أما السوء فهو اسم مصدر بمعنى ما يسوء وقد غلب استعمال المصدر فى الذى يسوء ويضر، واستعمال اسم المصدر فى ضد الإحسان. التحرير والتنوير مجلد ٩ جـ١٩ ص ٢٩.

(٢) إعراب القران وبيانه المجلد الخامس ص٣٥٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصفهم بتكذيب الرسل الناجم عن عدم الاعتبار، والمفهوم من فحوى العبارات السابقة إلى وسمهم بالوصمة الشنعاء والجريرة النكراء وهى «التكذيب بالبعث والنشور» والتى هى مكمن الغواية والعناد والضلال، والتى تأصلت وتأكدت وتغلغلت، «كانوا» لا يرجون نشورا، إنهم لم يعتبروا لأنهم كانوا كفرة لا يؤمنون بالبعث والحياة بعد الموت فلم يتوقعوا العذاب ولم يرهبوا العقاب لأنه إنما يتوقع العواقب من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم يتفكروا ومروا بها كما مرت ركابهم(١).

فالمرور على القرية لم يكن ليحرك تلك القلوب المظلمة الحالكة الظلمة التى لم تشرق بأنوار الإيمان ولم تهتد بأضوائه «بل كانوا لا يرجون نشورا» فذلك هو السبب الحائل دون الاعتبار، والعقبة المانعة من التدبر والاتعاظ، والنشور الذى لا يرجونه هو البعث وإحياء الموتى يوم يقوم الناس لرب العالمين، والكفرة لا يؤمنون به ولا يتوقعونه ولا يعتقدونه فالكلمة «النشور» من الألفاظ التى جرت في كلام العرب على معنى التخييل لأنهم لا يعتقدونه(٢).

وعن هذا الاعتقاد الضال تتشعب كل المفاسد والمآثم فعاشوا الحياة غواية وضلالة وكذبوا المرسلين وعاندوهم ثم فرغوا إلى الدنيا العاجلة، فأمضوا أيامهم عليها، يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

﴿أمر بالصفح عن الذين لا يرجون أيام الله﴾

قال تعالى: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون﴾ سورة الجاثية آية ١٤.

---

(١) الكشاف جـ٣ ص٩٣ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٩ جـ١٩ ص٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والآية دعـوة كـريمة للذين آمنوا أن يتـحلوا بالصـفح عن أضـادهم ممن لا يرجون أيام الله وأن يربأوا بأنفسهم وأن يترفعوا فى استعلاء وسعة صدر عن الإساءة إلى من أساء، فالمؤمنون الراجون أيام الله يكظمون غيظهم ويعفون عمن أساء إليهم، فهم محسنون أبرار، والله يجزل لهم المثوبة فى جنات النعيم يوم القيامة.

والأمر الكريم فى قوله عز وعلا ﴿**قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله**﴾ معناه، قل لهم يا محمد اغفروا يغفروا، بأن يتجاوزوا ويصفحوا وألا يعاقبوا على ذنب أو يأخذوا بجريرة فذلك أشبه بأخلاق الإيمان، وأعود بالخير على المحسن الذى يزداد بالصفح شموخا وسموا، وعلى المسىء الذى قد يرتدع عن إساءته ويرعوى عن حماقته، كما قال الله تعالى ﴿**ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم**﴾ سورة فصلت آية ٣٤.

فالفعل «يغفروا» مجزوم فى جواب قل والمقول محذوف دل عليه الجواب على تقدير قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا، وفيه تمام الوثوق بسرعة استجابة المؤمنين وامتثالهم لأمر رسولهم الكريم.

ووجه آخر يأتى فى مثل هذا التركيب كلما وقع في الكلام، أن «**يغفروا**» مجزوم على تقدير لام الأمر المحذوفة أى قل لهم ليغفروا [(١)].

«**والذين لا يرجون أيام الله**» يراد بهم المشركون من أهل مكة والرجاء توقع الأمر المحبوب كما هو أشهر إطلاقاته، والمشركون لا يتوقعون أيام الله التى تكون على الكافرين غضبا وهلاكا وعذابا وثبورا فى دنياهم وأخراهم، والتى تكون على المؤمنين بردا وسلاما ورحمة ورضوانا فى الدنيا والآخرة.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٢ ج٢٥ ص٣٣٩.

والتعريف بالصلة فى قوله عز وعلا «الذين لا يرجون أيام الله» هو تعريض بأن الله ينصر ويثيب الذين يرجون أيام نصره ومثوبته وهم المؤمنون، وأنه يوفيهم ما يأملون ويتوقعون من النصر فى الدنيا والنعيم في الآخرة.

والغرض من التعريض الإيماء بالموصول إلى وجه أمر المؤمنين أن يغفروا للمشركين ويصفحوا عن المسيئين المعتدين[(١)].

«ليجزى قوما بما كانوا يكسبون» تعليل للأمر بالمغفرة، أى يغفروا ليوفيهم جزاء المغفرة و«قوما» يعنى الغافرين، نكر لتعظيم شأنهم فى صفوهم وصفحهم وتجاوزهم، وأظهر فى مقام الإضمار لإشعاره بأنهم فريق له قوامه وعزته.

والأظهر أن «قوما» مراد به الإبهام وتنوينه للتنكير فقط، وذكر لإرادة العموم فليس ثمة إظهار فى مقام الإضمار، والمعنى ليجزى الله كل قوم بما كانوا يكسبون من خير أو شر بما يناسب كسبهم فيكون وعيدا للمشركين المعتدين، ووعدا للمؤمنين المأمورين بالصفح والتجاوز والغفران[(٢)].

﴿من عتاة المكذبين﴾

قال تعالى: **﴿مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا﴾**

سورة نوح آية ١٣، ١٤

كلمات حافلة بالجلال ومعان مفعمة بالتعجب والإنكار من هؤلاء الكفار الذين دعاهم نبيهم الكريم ليلا ونهارا، فلم يزدادوا إلا فرارا وإصرارا.

ونبي الله نوح عليه السلام كأنه يحرك فيهم الجبلة الجامدة والمشاعر الصلدة فى أسلوب يتعجب فيه من استهتارهم وسوء أدبهم مع اللــه دون أن

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٢ جـ٢٥ ص٣٤٠.

(٢) نفسه ص٣٤٢.

يستشعروا في أنفسهم توقيرا للجليل العظيم القادر الحكيم الخالق المصور الذي خلقهم في تلك الأطوار من الخلق والتكوين الدالة على كمال حلمه ورفقه وقدرته وعلمه. وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوقين تنقلوا في أطوار من الضعف، من النطفة إلى العلقة إلى المضغة... مكلوئين برعاية بارئهم محفوظين بعناية خالقهم فكانوا محقوقين بأن يتوصلوا إلى معرفة عظمة الله وتوقع عقابه.

والاستفهام في «مالكم لا ترجون لله وقاراً» استفهام صورته صورة السؤال عن أمر ثبت لهم، في حال انتفاء رجائهم توقير الله والمقصود أنه لا شيء ثبت لهم، صارف عن توقير الله فلا عذر في عدم توقيره عز وعلا(١).

فلماذا لا يوقرونه ويعظمونه وأي سبب منعهم من ذلك ؟

وأي أمر حال بينهم وبين الإيمان بخالقهم وتوقيره وإجلاله برجاء ثوابه والخوف من عقابه إنه لا يوجد سبب واحد يصح لدى العقول يمنع من توقير الرب المنعم المتفضل وتوحيده بالعبادة والاتجاه إليه في الخوف والرجاء.

والرجاء هنا يمكن أن يكون على معناه وهو الترقب والتوقع وكذلك الوقار يكون على معناه الذي يعني العظمة والإجلال ويكون المعنى عليه «مالكم لا ترجون ثوابا من الله ولا تخافون عقابا أي فتعبدوه راجين أن يثيبكم على عبادته وتوقيركم إياه، فالكلام هنا كناية تلويحية عن حثهم على الإيمان بالله الذي يستلزم رجاء ثوابه وخوف عقابه(٢).

فالنبي الكريم نوح عليه السلام إنما يدعوهم إلى الإيمان بالله وأن يتجهوا إليه وحده بالعبادة وأن يصدقوا بما جاء على لسان رسوله من البعث والحساب والثواب والعقاب، آملين حسن الجزاء على العبادة راجين أجزل المثوبة على تعظيمهم لله وتوقيرهم إياه فهي دعوة إلي إجابة الداعي وما جاء به من العقيدة الصحيحة التي ظل يدعوهم إليها ألف سنة إلا خمسين عاما.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٤ جـ٢٩ ص١٩٩.

(٢) نفسه ص ٢٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد يكون معنى «لا ترجون لله وقارا» أى لا تبالون لله عظمة وهى لغة حجازية أو لا تخافون عظمة الله وقدرته بالعقوبة(١).

ومع أن المعنى على هذا يتجه اتجاها آخر فهو إنما يدمغ هؤلاء الكفرة بالاستهتار ويصمهم بسوء الأدب وأنهم لا يقدرون الله حق قدره ولا يعظمونه حق عظمته أو أنهم لا يخافون عقابه ولا يخشون عذابه فإن الاستفهام التعجبى الإنكارى يظل على معناه من التساؤل عن الأسباب التى تجعلهم لا يخافون الله ولا يقدرونه حق قدره وهو الخالق الأعظم الذى خلقهم أطواراً وخلق فوقهم سبع سموات طباقا.

وقوله العزيز﴿وقد خلقكم أطوارا﴾ حال من مالكم أو ترجون. يعنى كيف يخلقكم من العدم فى تلك الأطوار العجيبة الدالة على القدرة والعظمة ثم لا تعظمونه وتوقرونه بالإيمان والعبادة والخشية والرجاء؟ أو ما بالكم؟ وما شأنكم العجيب الغريب؟ فى أنكم لا ترجون وقاره وتعظيمه وهو الخالق الأعظم؟ إن الخلق يستوجب الاعتراف بالعظمة والإذعان لإجلاله وجبروته، وكون الخلق أطوارا من النطفة فما بعدها يستوجب الإقرار بعظم قدرته ووافر حكمته وعميم حلمه وسعة علمه، فكان الأجدر بهم أن يتأملوا ذلك وأن يتوجهوا إلى الرب العظيم بالإجلال والتوقير وأن يرجوا ثوابه ويخشوا عقابه.

﴿العذاب للمكذبين بيوم الحساب﴾

قال تعالى:﴿إنهم كانوا لا يرجون حسابا﴾ سورة النبأ آية ٢٧.

الآية الكريمة تقع موقع التعليل لجملة «إن جهنم كانت مرصادا»(٢) إلى «جزاء وفاقا» فجهنم ترصد وتنتظر مآب الطاغين إليها، وهم سوف

---

(١) نفسه ص ٢٠٢.

(٢) سورة النبأ الآية ٢١ ومابعدها.

يقضون فيها الأزمان المتطاولة، يقتاتون الحميم والغساق، اذ هم لا يستحقون البرد والشراب، فهذا جزاء جرمهم وهم إنما يجزون على وفق أعمالهم، ورأس الشر، ولب النكر أنهم كانوا لا يتوقعون المآب، ولا يخشون الحساب.

والتأكيد بإن فى الآية الكريمة للاهتمام بالخبر وليس لرد الإنكار، إذ لا ينكر أحد شأنهم هذا، ومعنى «إن» إذا قصد بها مجرد الاهتمام أن تكون قائمة مقام فاء التفريع مفيدة للتعليل.

والفعل «كانوا» دال على أن انتفاء رجائهم للحساب وصف متمكن من نفوسهم، فهم كائنون عليه.

والقول الكريم «**لا يرجون حسابا**» ينفى رجاءهم وقوع الحساب، والمشهور أن الرجاء يكون فى ترقب المحبوب والحساب ليس خيرا لهم، فكيف يكون رجاء منفيا، ويجاب بأن ذكر الرجاء فى الإخبار عن جزاء الطاغين إنما كان حتى يعلم المؤمنون الراجون اليوم الآخر أنهم نجوا برجائهم، مما سيلقاه الطاغون فيه.

فنفى رجاء يوم الحساب عن المشركين جامع بصريحه معنى عدم وقوع إيمانهم بوقوعه، وبكنايته رجاء المؤمنين وقوعه بطريقة الكناية التعريضية تعريضا بالمسلمين، وهى أيضا تلويحية لما فى لازم مدلول الكلام من الخفاء[1].

والحساب الذى هو عد الأعمال والتوقيف على جزائها، إنما يرجوه المؤمنون، أما الطاغون المكذبون فإنهم لا يتوقعون ذلك ولا يضعونه فى الحسبان.

وبالله التوفيق

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٥ جـ٣٠ ص٣٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ثبت الآيات)

١- «أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب». (سورة الزمر آية ٩)

٢- «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً». (سورة الأحزاب آية ٢١)

٣- «لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد». (سورة الممتحنة آية ٦)

٤- «وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين». (سورة القصص آية ٨٦)

٥- «وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً». (سورة الإسراء آية ٢٨)

٦- «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم». (سورة البقرة آية ٢١٨)

٧- «ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لايرجون وكان الله عليما حكيماً».

(سورة النساء آية ١٠٤)

٨- «قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا».

(سورة الإسراء آية ٥٦، ٥٧)

٩- «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إليكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً».

(سورة الكهف آية ١١٠)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٠- «إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور». (سورة فاطر آية ٢٩، ٣٠)

١١- «من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم».

(سورة العنكبوت آية ٥)

١٢- «وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين». (سورة العنكبوت آية ٣٦)

١٣- «إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون»

(سورة يونس آية ٧، ٨)

١٤- «ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون»

(سورة يونس آية ١١)

١٥- «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم».

(سورة يونس آية ١٥)

١٦- «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً». (سورة الفرقان آية ٢١، ٢٢، ٢٣)

١٧- «ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا» (سورة الفرقان آية ٤٠)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٨- «قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون». (سورة الجاثية آية ١٤)

١٩- «ما لكم لا ترجون الله وقاراً وقد خلقكم أطواراً».

(سورة نوح آية ١٣، ١٤)

٢٠- «إنهم كانوا لا يرجون حساباً» (سورة النبأ آية ٢٧)

****

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner